محمود حسن إسماعيل

لابُدّ

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

سَنَمضى . . .
. . وكلُّ يَدٍ جذْوَةٌ
تعانِقُها أُختُها فى الْمَسِيرْ . .
سَواءً . . سَواءً . . كَموْج الضحَى
تغَنِّى به الشمسُ فوق الهديرْ . .
وَكالطيْر يَحشُدُ أسْرابَهُ
عَلَى حَوْمَة النُّور ، شوْقُ العبيرْ . .
قطَعْنا لظَى الدَّرب ، حتَّى دنَتْ
قوافِلُنا ، مِنْ شَذاهُ النَّضيرْ . .
وَمهما يكُنْ فى بقايا الطَّر يقِ ،
فلاَ بُدَّ . . مَهْما عَتَا ! ! أَنْ نَسِيرْ ! !

لاَبُدَّ..!!

لَابُدَّ أَنْ نَسِيرْ ! !
ونَجْرُفَ الأَقدارَ منْ طريقِنا الكبيرْ
ونَعصِرَ الرِّياح فى تلفُّت المصيرْ
ونصْعَقَ الهشيمَ فى احتضارهِ الأَخيرْ . . .
فلَم يَعُدْ لركْبنا وقُوفْ
ولم يَعُدْ لدَرْبِنا عُكوفْ

* * *

. . انصَهَرَ الْقيـدُ ، وَذابَتْ غشْيَةُ الظَّلامْ
وانْداحَ كل واقف فى غضْـبَة الزِّحامْ
وَأَقلعَتْ آفاقُنـا لِمَـرْفَأ السَّـلامْ
وانشـقَّتِ السُّـدوفْ
وانهـارت الـرُّفوفْ
وانْطلَقَتْ مِنْ رِقِّها عواصفُ الزَّئيرْ
بِفَجْرِها ، وجَمْرِها ، وأَمْسِها الْمَريرْ . .
تَصْرُخُ . . لاَسُكُوتْ !
لا همسَ ، لاخُفُوتْ !
يَا سَالبَ النظرةِ مِنْ توهُّج العُروقْ

يَا ساكبَ الحسْرَة فى ضِيَائها المُفِيقْ
يامُلْقِىَ الأَحجار فى انْتفاضَةِ الطَّرِيقْ :
لا بـــدَّ أَن نَســـيرْ
فى دربْنـا الكبـيرْ ! !

* * *

لا بُـدَّ أَنْ نَســيرْ
ونقْطفَ الظلالَ من مَحاجـر الهجيرْ
ونلْقُطَ الحَبَّةَ مِنْ منـاقر النُّسُورْ
وَنبـذُرَ الربيعَ فى مخَالب الصُّخُورْ

ونُنْشِبَ المشيئَهْ
واليَقْظَةَ الْجَريئَهْ
فى قلْبِ كلِّ ساكنٍ يَغِطُّ فى المُحَالْ
ويَسْتَرِدُّ مَوْتُهُ تَجدُّدَ الزَّوَالْ
ويَختَفِى هُروبُه فى تَوْهَةِ الْخَيالْ . . .
دُروبُنا مُضِيئَهْ
بالشُّعَلِ الْخَبيئَهْ
تُلْهِبُ فى أَعماقنا تَحرُّكَ العُبُورْ
وتَحْرقُ الرُّوحَ على أَشواقنا بخُورْ
وتُزْهِقُ الملالَ . . والْكَلالَ . . فى الشعورْ

وتضْـرِم التَّغييرْ . . .
فى أَعمق الجُذورْ . . .
فى كلِّ ماضٍ تَحتَها بِمَوْته قَرِيرْ
وكلِّ آتٍ فوقَها لِفجـره يُشـيرْ
لِغَدنا الْمُورقِ للإِنْسـانِ بِالنُّشورْ
« لا بُدَّ أَنْ نسـيرْ »
« فى دربِنـا الكبـيرْ »

* * *

وإِنْ أَطلَّتْ حيَّةٌ من مَزْحفٍ ضَريرْ
مِن كَهْفها ، فى ظُلْمَةٍ حانقةِ الضَّميرْ . .

لا بُدَّ أَنْ نَسْحَقَها فى رَهْجَةِ[1] المَسيرْ
بعـاصِفٍ ، مُدَمْدِمٍ بالنُّور والسَّعيرْ
يردُّها هشيمةً مرْجُـومَةَ الْحَفيرْ . .
فى كَيْدهـا تَمُـورْ
بالـويْل ، والثبُـورْ ! !

* * *

« لا بدَّ أَن نسيرْ ! ! »
وإنْ أَطلَّتْ آهةٌ على الضُّحَى الجَديدْ
لجَفْن كُوخٍ ناعِمٍ بفَجْره الْوَليدْ
وَحَقِّهِ الْعائد من تابوتهِ الْبَعيدْ . .

---

(١) الرَّهجة : الغبار

لا بُدَّ أَنْ نَرُدَّها تميمةً تَعُودْ
لحَقْلِهِ ، بالْعطْر ، والنَّماءِ ، والحصِيدْ
ونُــرجــعَ الــزُّهُورْ
لمهْدِهــا النضــيرْ . .

* * *

« لابد أَن نَسيرْ . . ! ! »
وإِنْ توارَتْ غَرْسَةٌ عن قَطْرةِ الشُّعاعْ
لِصُّ الضِّياءِ شَدَّها فى لحظَةِ الرَّضاعْ
وضمَّها لِلَيْلِهِ المهْتوكِ فى الضِّياعْ
لتشربَ الذُّبولَ ، والأُفولَ ، والضَّياعْ

وحسْرةَ الهوان فى طاغوته المُضاعْ
لا بُدَّ أَنْ نُردَّها تُورقُ فى البِقَاعْ . .
ونُـلـهِبَ المسـيـرْ
فى دربنا الكبيرْ
لتُشْرقَ الزهورُ فى مخاضِرِ الحُقولْ
ويلْعَقَ الظلامُ من بَيادِرِ الأُفولْ . .
ويَهْدرَ الضِّياءُ فى مرافئ الوُصولْ
وتسْمعَ الضِّفافُ ظِلَّ كَرْمها يقولْ :
مَدَّ الربيعُ كأْسَه لزَحْفنا الطويلْ
بالنُّور ، والعُطورْ ،

وفـرحـة العُبـورْ . .
لا بد أَن نَسير ! !

* * *

لابُـدَّ أَن نسيـرْ
ونهتكَ الســـــتورْ
لا بُدَّ . . هذى الأَوجُهُ البَليدةُ الرُّواءْ
ذاتُ السكونِ الميْتِ ، فى انتِفاضَة السَّناءْ
ذاتُ الوقوف العبْـدِ ، فى تحرُّكِ الفَضاءْ
ذاتُ الصَّـدَى المعقُوفِ بالهَمسَةِ للنِّداءْ
ذاتُ السُّهومِ الحاقِد النظرة للضِّياءْ

ذاتُ الوجود القابع المُخْضَلِّ بالفَناءْ
ذاتُ العكوفِ النَّاشِب السَّجْدَة فى العَماءْ
ذاتُ اليد المَنْهُومة الكذابة العطاءْ
تشرب دمْع غَيْرِها لِيُمرعَ الرِّياءْ
وتخْلِسُ اللمحَ من الضحَى بلا حياءْ
لتُفْسِحَ الطريقَ فى الأَوهام للمساءْ . . .
لا بدَّ، لا . . ! ياهذِهِ ! لَنْ يَرْجعَ الوراءْ . .
هَيْهاتَ ! ! أَنْ يَعودَ يادَجَّالَة الخَفَاءْ ! !
أَمسُ الذى فُتِنَاهُ بالثورة والمضَاءْ
فقد أَحالتْ ظُلْمَه رياحُنا هَباءْ . .

. . وردَّهُ انطلاقُنا الكبيـرْ
لجَوْرِهِ فى وَهْدة المصـيرْ ! !

* * *

لا بُدَّ أَن نَسـيرْ
لِشـطِّنا النَّضـيرْ . .

* * *

إِنَّا لَمَحْناهُ . . غـدُ رَبيعـهُ قَريبْ !
يَضُـوعُ بالعِزَّةِ والصَّفـاءِ فى الدروبْ
لكـلِّ قَلْبٍ رشـفَةٌ من ظلِّهِ الرطيبْ
لكلِّ عَيْنٍ قطفَـةٌ مِنْ ضَوْئِه الرَّحِيبْ

لِكلِّ كفٍّ فَرحةٌ مِنْ غَرْسها الحَبِيبْ
فلتَمْضِ للضِّفـافِ نَارُ زحفِنـا الرهيبْ
ولْتُنبِتِ الظِّـلالَ حيث يَفْهَقُ اللَّهيبْ
فليس فى طريقنا إِيمـاءَةٌ تُؤوبْ
وليس إِلاّ السيْرُ والمضَاءُ والهُبُـوبْ
ونَشْوَةُ الـعـبُورْ
فى دربنا الكبيرْ
لا بد أَن نسـيرْ . . لا بد أَن نسـيرْ ! !

البيعة

مع مسيرة الشعب وهو يتوهج بإيمان البيعة لحادى
الزحف العظيم .

(مايو ١٩٦٥)

بايَعْتُ فجراً . . شَعَّ فى جَبينى
ومزَّق الإطـراقَ من جُفـونى
وشلَّ خَطْوَ الذلِّ فى يقينى . .
وكنتُ فى ذاتىَ كالسجينِ ،
أَدورُ فى دَوَّامـةِ الأَنين ،
والقيدُ من صَرِيرِهِ يسقينى . .

* * *

. . شعَّ السَّنا . . ؛ وأَضرَمَ النواظِرْ
فأَحـرقَتْ خُطَـاهُ كلَّ جائِرْ
وَنوَّرَتْ طـريقَ كلِّ حَائرْ
وحَرَّرتْ جَبينَ كلِّ صـاغِرْ . . .
مَنْ ساقَ هذا النورَ لِلمَحاجِرْ ؟ !
سَلْ جَبْهتي ، واسمعْ : ضِياءُ ناصِرْ

* * *

بايَعْتُ خَطْواً . . . شقَّ ليلَ قَرْيتي
وفأْسُها حيْرانُ حـوْل زَهْرتي
يَسْأَلُها جَوْعانَ : أَيْنَ لُقْمَتي ؟

وكلُّ عطرٍ فيكِ ، كانَ دَمْعتى ،
وكانَ صبْرى ، وانتظـارَ نَقْرَتى . .
.. فى الأرضِ ، تُعطِينى حصَادَ غَلَّتى ! ؟
... ...
. . وَظلَّ يرْنو لِيَـد البَيادرْ[1]
وَهْىَ تَرُدُّ الفأْسَ لِلْحفـائرْ ،
لِتُتْخِمَ القصُورَ والحظـائرْ !
فَصـاحَ فيها صَيْحَةَ الْمقَادِرْ :
رُدِّى لساقِيكِ جَنَى الْأَزاهِرْ ! ! . .
. . فدوَّتِ الحقـولُ ، والمخاضِرْ

---

(١) البيادر : مكان درس الحبوب . مفردها بيدر .

وَالفأْسُ ، والْفلاَّحُ ، والمعابِرْ . .
قالت مَن السَّارى ؟ فقلتُ : ناصِرْ

* * *

بايَعْتُ ناراً . . وَهْجُها خُلودُ
رَدَّ القناةَ كِبْرُها العِنيدُ . .
عَلَى سَنـاهَا كبَّرَ الشهيـدُ
وانتحَـرَتْ من بأْسهـا القُيودُ
ومِنْ صَداهَـا ارْتَعَدَ الوجـودُ
وانْدَحَرَ المستعمرُ العتيـدُ ! !

. . . . . .

.. وَسبَّحَتْ بنَصْرها المنـائرْ
وصَيَّحَتْ بصِيتِهـا المنـابرْ
وَأَصبَـحَتْ أيَّامُها شَعـائرْ ،
يَشْدُو بها التَّاريخُ فى الْمفَاخِـرْ
وَلِلَّيـالى يُشعِلُ الْمباخِـرْ . .
وَكُلَّما اشتاقَتْ بِهـا المجـامِرْ ؛
رشَّ لَها الوميضَ ، قَلْبُ ناصِرْ ! !

* * *

بايَعْتُ طَوْداً . . فى رُبَى أُسْـوانِ
مُعْجِـزةَ الإِصْرارِ للإِنسـان

وَشمْخَـةَ الأَقدارِ ، فى بُنْيانِ ،
دَكَّ صُروحَ البَـغْى والطغيَانِ
وقامَ كانتفـاضَةِ الـزَّمانِ
كفـارِسٍ فى حَوْمَةِ الطِّعـانِ

. . . . . .

. . لم يُبْقِ لِلأَمانِ وَجْـهَ غادِرْ !
ولم يُبالِ دَوْرَةَ المصـائرْ . .
داس اللَّظى ، وانقضَّ فى الدَّياجرْ
علَى قُوَى الشرِّ الْعتىِّ الفاجِـرْ
كَفَّنَهـا فى غَزْوِها المُقـامِرْ

وردَّها تَطْحَنُها الدوائرْ . .
وقُبْلَةُ الشمس تُحيِّى الظَّافِرْ
بجَبهة السَّدِّ . . ، بوَجهِ « ناصِرْ »

* * *

بايَعْتُ حَقًّا . . عادَ للأَنامِلِ ،
وهى تُذِيبُ الظلْمَ فى المَراجِلِ . .
مِنْ شَيْبَة البُؤْس بكفِّ العامِلِ ،
تشقُّ درْبَ النور بالمعاولِ
وتحصُدُ الظلامَ بالمناجِلِ ،
وتسكُبُ الرُّوحَ عَلى المشاعِلِ ، . .

.. زيْتاً يُضيءُ ليْلَ كلِّ سائرْ
وأَنجماً تَهْـدِى ، لِكلِّ حائِرْ
مِن سيِّـد الآلةِ وهْوَ ساهِـرْ
يَجْنِى قِطافَ النُّـور للنواظِرْ..
ذابَ الأَسَى واخضرَّتِ المشاعِـرْ
وَرَفْـرفَ الحقُّ لـكل عائِرْ
لَبَّيْكَ ! عادت نَجْـدتى بناصرْ

* * *

بايَعْتُ كُلَّ نبضَـةٍ فى بَدنى
وكلَّ نُور فى شعاب وَطَـنى

وكلَّ زحف للضُّـــحَى قَرَّبنى
وكلَّ صَحْـوٍ ثائرٍ جَـدَّدَنى
وكلَّ خَطْـوٍ ردَّ كِبْرَ زَمَنى
وكلَّ عَهْـدٍ مِنْ يَقينٍ مؤْمِنِ . .

. . . . . .

. . فكلُّها . . مِن كلِّ حرٍّ ثائِرْ
وكلُّها للغـدِ . . روضٌ عاطِـرْ
وكلُّهـا للشعْب . . نبعٌ زاخِرْ
وكلُّها للنَّصْـر . . فجرٌ هادِرْ
عـلَى فلسطينَ له بَشـائِرْ

مهما تغِبْ . . لابُدَّ أَنْ تبـــادِرْ !
وكلُّها : ضوْءُ الصَّبَاحِ السَّائرْ . .
بايَعْتها للحقِّ . . بِاسم « ناصِرْ » ! !

حَادِى التَّغْيِير

مع ثورة السماء . .
وهى تفجر طريق الحرية للإنسان ! مع حادى
التغيير . . فى طريقه للنضال من أجل الحق
والعدل ودك الطغيان !

دوَّى على طريقــه التغييرُ
وانتفضتْ من كهفهـا العصورُ
وهبَّ كلُّ ساكنٍ يثـورُ
وللضيـاءِ انطلق العبـورُ . .
وكلُّ ريحٍ غيَّرت مسارَها
وأَضرمتْ فوق الهدوءِ نارَها . .
وكـــلُّ أُفْق كان فى وســادِهِ
يلعَق سِحر الأَمسِ من مهادِهِ . .

انتفضَ النــورُ على جبينــهِ
فحــرَّك الدهرَ على يمينــه . .
ذوَّبَ وهْمَ الـذلِ من ذرَّاتـهِ
وأَحــرق الإِطـراقَ من هالاتــهِ . .
وَلَمْلَمَ الـرِّقَّ من الأَثيرِ
وأَنْبَتَ الإِنســانَ فى الضميرِ . .
غيَّرهُ من صــاغرٍ أَوَّابِ
يرضع من أساه فى الترابِ . .

يُريق للظـالم من دموعـهِ
عطرَ خريفٍ راغ فى ربيعهِ . . .
ويلثمُ الأَطـواقَ فى السجودِ
كأَنها تمائمُ الوجـودِ . . .
يُهيلُ للنّـار خفايَا ذاتِهِ
لتسْكبَ الطهرَ على حياتِهِ . . .
ويـرتمى كـغفلةِ الخطيئـهْ
على صَفاةِ الصنم البريئهْ . . .

ويَذبحُ الروحَ لهـا قربانا
يَسـتلُّ من رماده الأَمانا . . .

ويعزفُ النـجمَ على عيونهِ
لحنا يصُب الليْلَ فى يقينهِ . . .

إن مرَّ فى خيـاله جبّـارُ
على شظايا طيْفهِ ينهـارُ . . .

مدَّ النِّفـاقُ تحتـه رُواقـا
وأَسكر الشعورَ والأَحـداقا . . .

أَبلَى شـغَافَ نفْسـه ، وجَاءَ
ليـلاً يُرِيقُ ليله ثُفَاءَ[1] . . .

يبنى من الطين على هبـائهِ
آلهـةً خرسـاءَ فى فضائِه . .

يُزجى لها الصلاَةَ والتعبُّـدَا
ويُوزِعُ الروح لها أَن تسجُدا . .

يَفْهقُ فى ضَـلاله للصـنَمِ
ويستجيرُ بضحـاهُ المُظلِمِ . .

(١) ثفاء : المراد مرارةً وألماً . .

ويغرِسُ التـوْبةَ فى تُـرابه
أُختَ عَمَاءٍ ساخ فى ضبابه . . .
والشمسُ فى إحســاسِهِ والقمرُ
معــابدٌ غنى هــواها الوترُ . .
لايعــرف اللهَ ، ولـوْ مرّ بــهِ
خُلـدٌ يضىءُ كـلَّ ما فى قلبـهِ . .
تقسَّمتْ عُروقُــه أكوانـا
وانشطرتْ وجوهُــه ألوانا . .

عَبْدٌ يدُورُ فى غبار سيِّدِ
وساجدٌ يحْفِن ذلاً باليدِ..
وأُممٌ تُرعَى بدين الغَنَمِ
لجَّت بها الأَغلال أَعتى الظلَمِ..
أَعْيَت خطاها كلماتُ الرسُلِ
ومعجزاتُ المرسَلين الأُوَلِ..
وغابَ وجهُ الله عن أَعماقها
وزمْزَمَ الشيطانُ فى أَحداقها..

تنعَى بها مَوءُودةً . . ما سُئلتْ
بأَىِّ ذنْبٍ ، دون ذَنْبٍ ، قُتِلَتْ !

ويشتكيها جائعٌ فَقيرُ
أَنفاسُه بالوهم تستجيرُ . . .

وراسِفٌ فى ظلمِه يوَلْولُ
واليأْس من أَنينه يَرتجلُ . . .

ظلَّت على طُغيانها تدورُ
والكوْن مشْلولُ الخُطا ضريرُ ! !

حتى أَتاها مُضـرِمُ التغييـر
فى ليلها الجانى على الدهور . . .
شدَّ خطـاها فى الدُّجَى ، وسـارا
فى هِجْرَةٍ شقَّت لها النَّهارَا . .
وشعشَعَتْ فى دربهـا الضـياءَ
وأَتْرعَت فى قلبهـا السماءَ
أَعْتَى شعـاعٍ فى ضمير الزمَنِ
يهـدِى بنـور الله كلَّ مُؤْمِنِ ! !

بَغْـــدَادْ

« من ضفاف دجلة . . انسكبت هذه الترنيمة ،
التى كانت إنشاد الشاعر فى مهرجان الشعر
السادس ببغداد يوم ٢١ فبراير ١٩٦٥ » .

لوْ أَلْهَمَتْنِى طَيْفَ صوتٍ ، من صَدَى التاريخ حوْلَ بابها ،
أَوْ . . وَشَّعَتْنِى بسناً ، من سَجْـدةِ النور على قِبابها ،
أَوْ . . سَاكَبَتْنِى بِيَدِ الوحْىِ ، رَحيقَ الخُلْدِ مِنْ عُبابها ،

أَوْ . . فاغَمَتْنِى [1] بعَبيرِ المجد فى تُرابهـا ،
وَرَشْفَةٍ مِنْ وَهْلَةِ الإيمانِ فى أَهـدابها ،
وَمِنْ جَلالِ الشَّرْقِ ، مِنْ ضحاهُ فى رحابها ؛ ؛

. . لَجِئْتُها بسَيْكبٍ [2] من مُهْجَتى ، مِنَ الغِناءِ ، لَمْ تَرَهْ ! !
وَسُقْتُها مَلاحماً للشِّعْر ، مِنْ تاريخها معطَّـرَهْ ! !
تَقُصُّ أَلْفَ ليلةٍ جَديدةٍ . لأَلْفِهـا ، . .
. . ومَعْذرَهْ ! ! . . .

---

(١) فاغمتنى : طيَّبَتْنى .
(٢) سيكب : فِيْضَة .

لَوْ دَنْدَنَ الشعورْ وأَقْلَعَ الطَّـريقْ
وفاتنى العُبُـورْ لِسِرِّها الْعَميقْ !
.. فنَغْمَةُ العُصورْ فى نَايها الْعَريقْ ،
تُدَوِّخُ الـدُّهورْ وتُسْـكِرُ الرَّحيقْ
وَتُذْهِلُ الْعِيدانَ ، لَوْ بابِلُ تُزْجِى السِّحْرَ ، مِنْ رَبابها ،
وَتَعْصِرُ الإلْهامَ ، مِن كلِّ شَجٍ ، أَوْ عاشِقٍ غَنَّى بِهَا ! !

* * *

لَوْ أَنَّنى ملاَّحُ بَحْرٍ ، أَلْحَدَتْ تحتَ الدُّجَى رِياحُهُ
وأَصْبَحَتْ قُلُوعُهُ جَنائِزاً ، شَلَّتْ بها جِراحُهُ
وسُمِّرَتْ آفاقُهُ ، وارتَدَّ مَوْءُودَ الصـدَى نُواحُهُ ؛

وذُقْتُ رشْفَتَيْنِ ، من دِجْلَتِها المُطَهَّرِ . . ،
وذُبْتُ قطْرَتَيْنِ ، فى مَسَـابِهِ المُعَطَّرِ ،
وحُلْمَ مَوْجَتَيْن ، فى ربيعِهِ المسَحَّرِ . . ؛ ؛
. . لاندلَعَتْ سَفِينَتى ، تمخُـرُ فى الغَياهب المدثَّرَهْ
وأَقبلتْ حَوْلى الرياحُ ، طَوْعَ أَحْلام المَدَى مستَغْفِرَهْ
تَطْوِى معى تِيهَ القرونِ ؛ لو أَرادَتْ نظرتى أَنْ تَعبُرَهْ . .
فنَهْرُها مَلاَّحْ فى لُجَّةِ الحَياهْ
فى كَفِّهِ مِصباحْ عَبَّ الدُّجَى سناهْ . .

وَدفَّـــةُ الرياحْ تَجْرى علَى مَدَاهُ ! ! ..
والْعاصِفُ المجتاحْ يَغْدُو لهُ صَلاَهْ ! ! ..
كمْ مَرَّةٍ مَسَّ رُباها ، فانْبرَى بفَجْرها جَناحُهُ ! !
وَهَبَّ كالمِقْدارِ ، لم يَتْرُكْ رُفَاتَ ظُلْمةٍ صَباحُهُ ! !

* * *

نَزَلْتُهـا .. واللَّيْلُ لم يَدْر بها مُتَّجهـاً لِقِبْلَتِهْ
فراحَ يحثُوا خاشعاً ، أنَّى سرَى ، مكبِّراً بخُطْوَتهْ ..
والنورُ حبَّاتُ ضُحًى مَبْثُوثَةُ الضياءِ ، حول سَجْدتِهْ
كأنَّها تَمائِمٌ ، لِوَجْهها المُنَضَّرِ ..

كأنَّها حمائمٌ ، أسرابُها لم تطِرِ ،
بيضُ الجناحِ ، مُصْغياتٌ لبقايا وَتَرِ ،
.. ألْقاهُ إسْحاقُ ، ولَمْ تسكُنْ بقايا عُودِهِ المُرنِّمِ ،
ولم تزَلْ أنغامُهُ ، رغْمَ المدَى ، وَلْهانَةً ، لم تنَم ،
شجيَّةً ، أبيَّةً ، عتيَّةَ السكونِ والتَّرنُّمِ ،

آهاتُها نُشُورْ يَهْدِرُ فى القلوبْ
وصمتُها شعورْ يزأرُ فى الدُّروبْ
يُجدِّدُ المسيرْ يُبَدِّدُ الْغُروبْ
ويرفَعُ الستورْ للشمس.. كى تَثُوبْ

وتُرْجعَ النورَ ، لمن كانوا على الدُّنيا ، حُداةَ يَقْظَتِهْ
ومَن سَقَوْه للدُّجَى ، والْغربُ أَعمَى شارِبٌ مِنْ ظُلْمَتِهْ ! !

* * *

وقفتُ فى فضائها أَسمعُ طيْرَ الخُلْدِ فى مَنابِرِهْ
و « البُحْترىُّ » حامِلٌ تلفُّتَ الدُّنيا إلَى قَباثِرِهْ
والسِّينُ[1] سهْمٌ للخلُود يَرشُقُ الإيوانَ فى سَرائرِهْ
يَرْوى تَذلُّلَ البِلَى فى وجهِهِ وخاطِرِهْ ،
ونشْوَةَ النُّور على إطراقَةٍ بناظِرِهْ ،
منذ دهَتْهُ هالَةٌ شقَّتْ ذُرا أَكاسِرِهْ ؛ ؛ . .

---

(١) السين : إشارة إلى سينية البحترى فى وصف إيوان كسرى التى يقول فى مطلعها :
صُنْتُ نفسى عمّا يُدنِّسُ نفْسى وترفَّعْتُ عن جَدَا كلِّ جِبْسِ

.. منْ قُبْلة السَّماءِ ، للبَيْداءِ ؛ من بيْتٍ بِأَرض الْعَربِ ،
شَعَّتْ ، تضِيءُ حيْرة الوُجود ، مِنْ وَجْه نَبِى ..
هَبَّ لَها «سَابُورْ»[1] من فزْعَة الأَكفانْ
مِنْ دَسْتِهِ[2] المقْهُورْ فى قبْضَةِ النِّسيانْ ؛
.. وَدَارَ كالمَسْحُورْ فى حَيْرة الإيوان ،
يَصيحُ ! والمقدورْ يُجيبُ ؛ والنِّيرانْ ؛
تُهيلُ من رَمادِها الْخُمودَ ، والزَّوالَ ، فى مَحاجِرهْ ! !
وترتَمى ساجِدةً ، لوَهْلةِ الأَضواءِ فى مقاصِرِهْ ! !

* * *

(١) سابور : أوشهبور ملك فارس من الأسرة الساسانية .
(٢) دسته : مجلسه أوسجنه .

مِنْ هاهُنا ، وغيْمةُ الرَّشيد تَطْوِى الأُفْقَ فى أَنامِلِهْ
وصوْلجانُ الفِكْر ، والمأْمون يُذْكِى الضَّوْءَ فى مشاعِلِهْ
وسيْفُ هُولاكو ، مِنَ الخَيْبة ، مُرْتَدٌّ إِلَى مقاتِلِهْ
مِنْ هاهُنا ، « والنورُ لم يَغْفَلْ سَناهُ أَبَدَا » . .
ورَايةُ الإِسلاَم ، لم يترك ضحاها أَحَدَا . .
وكيفَ؟ والسَّماءُ خَطَّتْ فوقها . . «محمَّدا» . . ! !

محرِّرَ الإِنسانِ ، دَاهِى الرقِ والهَوانِ فى جَبينِهِ ،
بَثْورةٍ شبَّتْ علَى تكالُبِ الأَغلالِ فى يَمينِهِ ،
فذَوَّبَتْ قُيودَهُ بصيْحَةِ القُرآنْ . .
وأَضرَمَتْ وَقودَهُ فى جَبْهةِ الطُّغيانْ . .

وَحرَّرتْ وُجودَهُ مِن قبضة الأَوْثانْ . .
وحرَّمتْ سُجودَهُ إلاَّ إلى الرحمٰنْ . .
.. من هَاهُنَا . . حُداؤُها ، مَدَّ الخُطا ، وسارَ فى قَوافِلِهْ
وفجَّرَ الضياءَ ، يسْقِى ظلمةَ الوجُود ، مِنْ مَناهِلِهْ ! !

* * *

ولم أَزَلْ أُصغى ، ويُصْغى فى دمى ، تَبَتُّلُ النَّخيلْ
كأَنَّه مِسْبَحةٌ ، تَعُدُّ فى تاريخها الطَّويلْ ؛
خضراءُ ، ما زالتْ يدُ « المَنْصُور » فى أَحْلامِها تَجُولْ
تُدِيرُها ، وتَقْطِرُ السلامَ من حبَّاتِها
وتسْكُبُ الضياءَ ، والإباءَ ، فى رايَاتِها
وَتَعْصِرُ الشَّمْسَ لخطوِ الفجرِ فى ساحاتِها . .

وَحَوْلها ، لعَوْدَة الأَيَّام لاحَتْ شَمْخَةُ المآذِنِ
تُصْغى مَعى ، كأَنَّها تَسبيحةُ الْوَحْدَةِ ، فى مَلاحِنِى !
كَأَنَّهـــا جِبَاهْ هَبَّـــتْ من السُّجودْ
تُكبِّرُ الصَّـــلاهْ لِفَجْرِهـــا الْوَليدْ
وَتُرْزِمُ الشفـــاهْ بوَحْدَةِ التَّشِيـــدْ
وَتُرْجِـــعُ الحُداهْ لِلدَّرْبِ مِنْ جَديدْ ، . .
. . وتُسْبِغُ الرَّايةُ فى الْمعراج ، نُورَ ظِلِّها الظَّليلْ
ويَدفنُ التاريخ عارَ أَمسِهِ ، فى مُهْجَةِ الدَّخيلْ ! !

* * *

بَغدادُ . . ياترنيمةَ العُصُور ، يَاتَمِيمَةَ الزَّمانْ
ياحُلُماً مشَعْشِعاً ، لِلدَّهْرِ كم دَارتْ به الدِّنانْ
يانغَماً لِلْخُلْدِ ، لَمْ تَعزفْ علَى رَبابه يَدانْ . .
يا قِصَّةً ، تحبُو الأَساطيرُ على أَعْتابها
ياكَرْمةً ، عَبَّ سُقاةُ النُّور من أَعنابِها
يا قِبلَةً للشمْسِ ، تستَيْقظُ من أَهْدابها . .
يا زادَ كلِّ وقْفَةٍ ، يُكَبِّرُ التَّاريخُ ، فى تُرابِها
يا كِبْرَ كلِّ نَظْرَةٍ ، شَقَّتْ بكِ الأَجْيَالَ فى انْسِيَابِها
يَا نَبْضَـــةَ الأَوتارْ فى ثَوْرةِ النَّغَمْ ،
يا صحْـــوَةَ الأَحرارْ يَوْمَ الدُّجَى أَلَمْ . . ،

. . رَوَّيْتِ شوْقَ النارْ مِنْ غَفْلَةِ الظُّلَمْ . .
فَرُحْتُ بالْقَيْثارْ . . والنِّيل ، والهـــرَمْ ،
أَشْدُوكِ يا « بغدادُ . . » لحناً شَعَّ من تَوَهُّجِ الأَذَانْ
لموكبِ الوَحدةِ ، لِلرَّايةِ تحدُو زحْفَهُ للمهرجانْ ! !

* * *

بَغدادُ . . لَوْ أَمْلِكُ بأْسَ الغيب فى توغُّل الآمادْ
لوْ لى على الهُبُوب فى مَجاهل القلُوب أَىُّ زادْ
لوْ مِنجلى فى كفِّ ريحٍ باللَّهيب أُفْقُها حَصَّادْ . .
. . لَطُفْتُ كالضِّياءِ فى مسارب الصدورْ
وكالدُّعاءِ المستجيرِ من تردُّدِ الشعورْ

من الخليجِ لِلْمُحيطِ للدُّروبِ للثُّغورْ
أَهْوى على الفُرْقةِ أَينَ هوَّمَتْ فى وطنى الكبيرْ
أَخْطِفُها من كَهْفِها ، مِنْ مَزْحَفِ المستعمِرِ الضَّرِيرْ
أَسْحَقُها فى وَهْمِها فى سُمِّها ، بوَحْدَةِ المصيرْ . .
. . لكننى هديرْ مُحَلِّقُ الجناحْ
يَهزُّهُ صريرْ من أَرغُنِ الصَّباحْ . .
فإِنْ دعا النَّفيرْ ودقَّتِ الرِّياحْ
سيَزحَفُ الغَديرْ والنَّاىُ ، والجِراحْ . .
ونَلْتقى يا عَرَبَ الوَحْدَةِ ، فَوْق ربْوَة الْمِيعادْ
وبَيْرقُ النصر يعيدُ اللَّحن فى السَّماءِ . . يا « بغدادْ »

التَّائِهَة

« في زورة الشاعر لأرض المعراج أحس بعذاب التراب ، وثورته التي يتضرم لهيبها على خطأ التائهة الملعونة . . إسرائيل »

عارِيـــةٌ . . طـــافَتْ بزُنَّار[1]
مُجَـــدَّلٍ بالخِـــزْيِ والْعـــارِ

مَرْجُومَةُ النَّظْرَةِ . . فى لَمْحِها
تابـــوتُ أَرْجـــاسٍ وأَوزَارِ

فلَـــوْ سَرَتْ كانَتْ خَنَاً هارِباً
مِنْ نَـــدَمٍ فى النَّفْس دَوَّارِ

ولَو هفَتْ يوماً عـــلَى تائبٍ
غَنَّى له الإِثْـــم بقَيْثـــارِ

---

(١) الزُّنَّارُ : حزام يشده النّصرانىُّ على وسطه .

وانْســلَّ فى تَوْبَتِهِ عَاصِياً
يَستَلُّ فِردَوْساً من النَّار . .

ولَوْ رنَتْ لِلخُـلْدِ . . لَمْ تُبْقِ فى
سمـائِـــه دَعْوَةَ أَبْـــرارِ ،

إِيماؤُها يُخْزِى صَــلاةَ الضُّحَى
لو شبَّهـا معْبَـدُ أَطيـارِ

ويُخْجِلُ اللَّيـلَ ، وَلَـوْ ناغَمَتْ
آنــاؤُهُ اللهَ بأَسْحَــار . .

تاهَتْ فَلَوْ سارَتْ لكانتْ سُرًّى
مُصَفَّـداً فى وهْمِ أَسْفـارِ

آفاقُهـا سَمُّ خيـاطٍ علَى
جَفن شلِيلِ الكفِّ مُحْتَارِ (١)

ودَرْبُها غَيْبٌ بِلا شاطئٍ
يأْويـهِ فى لُجَّـةِ أَقْـدارِ

تَزُجُّهـا اللَّعْنَةُ أَنَّى شكَتْ
حَيْرَتَهَا ، فى قَلْب إِعْصار ،

(١) مُحْتَار : مُقَتِّر .

فى غَيْهبٍ ، سُمِّرَ قَيْـدُ الدُّجَى
فى لَيْـلهِ المُنْتقِمِ الضَّـارِى

فلا سَمـاءُ اللهِ مَدَّتْ لَها
تَهـويمةً مِنْ طَيْفِ أَنوارِ ،

ولاَ الثَّرَى وهْوَ احتضَانُ المدَى
والتيهِ ، وَاسَـاها بأَشْبَارِ

بِنْتُ الْخَطـايَا السُّودِ دَارَتْ بِها
رَحـيقَ أَفَـاقِين أَشْـرارِ

مِنْ غَابِرِ الدَّهْـرِ لَهـا سِيرةٌ
ضـاقَتْ بـأَوْطَـانٍ وأَسْـفَـارِ

نَهـارُهَا يَجْتَرُّ زَيْفَ الرُّؤَى
فهوَ ظـلامٌ فاسِقٌ عارِى

ولَيلُهـا مَعْصِيَـةٌ جُنِّحَتْ
كالبُـومِ فى أَطـلال أَوْكَارِ

تَنْعَبُ فى تجْـوالَها مِثْلَهُ
علَى خَرابٍ شـاردِ الدَّارِ !

مَلْعُونَةٌ تَقْتَاتُ مِنْ عِرْضِهـا
قُوتَ الصَّدَى مِنْ أَيِّ مِزْمارِ

وَتَشْرَبُ السُّحْتَ على نَشْوَةٍ
يَرْغُو بهـا إِبْريقُ خَمَّـارِ

وَتَذْبَـحُ اللهَ عـلَى دِرْهـمٍ
مقـدَّسِ اللَّعْنـةِ ثَرْثارِ

قالت : يداهُ – جَلَّ – مغلولةٌ !
غَلَّتْ يَدَيْها – كَفُّ جَبَّارِ ! !

وَطاردَتْها لعَناتُ الْورَى
بِعاصِفٍ كالْهَوْلِ دَوَّارِ

تَلْقَى بهِ فى الذُّلِّ – أَنَّى مَشَتْ –
وَيْلَ هَشيمٍ لاَذَ بالنَّارِ . .

تَلْقفُها الأَرْضُ تَرامَتْ لها
فى زاخِرٍ بالْحِقْدِ مَوَّارِ

يَنْهشُ أَمْنَ الرُّوحِ فى جَنْبِها
منْ غيرِ أَنيابٍ وأَظْفارِ

يَلْعَنُهـا الأُفْقُ بِوَادِ الْمَدَى
مِنْ كلِّ أَبْعـادٍ وأَقْطـار

تَخْطُـو . . وَتَرْتدُّ علَى مَوْجِهِ
كذَرَّةٍ فى صَـدْرِ تيَّـارِ . .

يَلْعَنُهـا اللهُ . . فَكَم مُرْسَلٍ
كانَتْ له تأْويلَ كَفَّـارِ ! !

تَهادَلَتْ سِنَـا علَى دَرْبِهـا
لعلَّـه يُومض لِلسَّـارى

وَعَشَّشَتْ فى ذاتِها غيْهَباً
مُسْتَخْفِيا من غير أَوْكارِ . .

غنَّى لها « موسَى » بأَلواحِهِ ،
ونافَخَ الطورَ بمزمارِ

وكلَّم اللهَ . . فأَصغَتْ له
ثاكلةً تُصْغِى لحفَّارِ !

جبينُه للنُّور . . وهْىَ الدجَى
يُمْعِنُ فى تَابوت أَغوارِ !

وجاءَهَا عِيسى برفْقِ الْهُـدَى
فَـلمْ يَزِدْها غَيـرَ إِصْـرارِ

وغـيرَ تاريخٍ صَلِيبِ الأَسَى
يَصِرُّ مِنْ لـوْحٍ ومِسْمارِ

وَأُنْزِلَ الفُرقانُ نُوراً على
هادٍ مِنَ الرَّحمٰنِ مُخْتَارِ

فَواصَلَتْ كَيْـدَ السَّما ! لَعْنـةً
مَنْبُـوذةً تَبْحَثُ عن جَارِ . .

وَدَارَتِ الدُّنيـا . . وفى غَفْلَةٍ
نامَتْ عَـلَى أَجفـانِ غَدَّارِ ،

حَطَّتْ علَى أَرضٍ لَها سَجْدةٌ
للهِ . . صارَتْ سَجْدَةَ الْعارِ ! !

وفى غدٍ . . أَرْقُبُ خيلَ الضُّحَى
تزأَرُ فى غَضْبةِ أَحْرَارِ

تَدُقُّ بابَ الْعـارِ . . تَهْوِى بِهِ
وترفعُ الـرّايةَ لِلثـارِ . .

سَيْفُ اللّه

« أصغى الشاعر لهمس الضياء على قبر الإمام
على رضى الله عنه فى زورة للنجف الأشرف
بالعراق ظهيرة يوم ٢٢ فبراير ١٩٦٥ فسمع هذه
الترنيمة . . وألقاها فى مهرجان الشعر بالكوفة
مساء اليوم . . »

ونادَى مُنــادٍ للضيــاءِ فكبَّرتْ
جفونى ، وصلَّتْ للنداءِ خواطرى

وذوَّبْتُ قلبى ، فى رحيقٍ من السنا
وعطَّرتُ من فجرِ الخلودِ قياثرى

وأحرقْتُ فى أَوتارِها ، كلَّ ما زَكَتْ
به – لصلاةِ الرُّوحِ – نارُ المباخِرِ

تسابيحَ مَن صلَّى ! وأَشواقَ من دَعَا
وذوَّب فى كفَّيْهِ دَمعَ السرائرِ ! . .

غَرفْتُ عبيرَ الطُّهْرِ . . من كلِّ ساجد
ومِن كُلِّ أَوَّابٍ ، ومِن كُل ذاكرِ

ومِنْ كلِّ طيرٍ مَرَّ بالخُلد نايُهُ
وأَصغَى لِهَمْسِ الحُورِ بيْن المَخاضِرِ . .

ومن كلِّ فَجْرٍ كلَّمَ اللهَ قلبُهُ
بآياتِ نورٍ من يدِ الله غامرِ . .

ومن كلِّ نبْرٍ للصَّدَى من مُرتِّل
بمُصْحَفِهِ رنَّتْ صلاةُ المَشَاعِرِ . .

ومن صلَواتٍ للنَّخيـــلِ ، رأَيتُهـــا
تُرَنِّمُ للأَضْواءِ قُدْسَ الشَّعائرِ . .

تُهلِّلُ بالإصغاءِ ، تائبَةَ الضُّحَى
كمُسْتَغْفِرٍ لله ساجِي النـــواظرِ . .

وفى وجهها صُوفيةٌ . . لوْ تكلمَتْ
لكانت حديثَ الطُّهر فى كل خاطرِ . .

حشدْتُ عبيرَ المتَّقين ، وطُهْرَهُمْ
وأَشعلْتُه رأْدَ الضُّحَى بمَجامرى . .

وبدَّلْتُ نايي مِن غنـــاءٍ مُرنَّمٍ
لأَنغام نورٍ خاشعاتِ المزاهـــرِ..

لأشدُوَ أَرضاً كرَّم اللهُ وجْهَهَا
بوجهٍ على تاريخِها النَّضْرِ، عاطرِ..

بسَيْفٍ بَراهُ اللهُ عدلاً وحكمةً
وشقَّ به الإِسلامُ قلبَ الدياجرِ..

وأَفْزَعَ ليْـــلَ الجاحـــدين بَوْمضِه
فَخَرَّ لدِين اللهِ كلُّ مُكابِرِ..

وشعَّتْ خطا الدُنيا بنورِ محمَّدٍ
ومِنْ نوره هلَّتْ جميعُ المنائرِ . .

فياكوفةَ الأَمجـــادِ حيَّتْكِ وَحدةٌ
على فجرِها التفَّتْ جميعُ الأواصرِ

وعادتْ إليهِ الشمسُ يسطَعُ نورُها
كما كانَ فى تلكَ العُصُورِ الزواهرِ !

سَجْدَةٌ فِي طَرِيقِ النُّورِ

« مع الكون . . وهو يرتقب أول خطوة خارج
الغار لنبى الإنسانية »

كلُّ حصاةٍ فى الطَّريق أَوْمأَتْ تنتظِرُ
وكلُّ ذرَّاتِ الأَثير أقبلَتْ تُكبِّرُ

* * *

والرِّيحُ من كلِّ اتِّجاهٍ أيقظَتْ رَبابَها
وأسبلَتْ على جَبينِ أُفْقِها أَهدابَها

* * *

واسترسلَتْ تعزِفُ للسكون من صَلاتِها
وتستَعيدُ شجْوَها همْساً على لَهاتِها

* * *

وتُسْمِعُ الجِبالَ من تسبيحها أَنْغاما
لم تَدْرِ كيف انحدرَتْ مِن قلبِها إِلهاما

* * *

والفَجْرُ مِن مَزَارِه النَّعسان فى وجه الوَثَنْ
رَدَّ خُطاهُ لخُطاً جديدةٍ علَى الزمَنْ . .

* * *

جاءَتْ تهـزُّ مُطْرِقاً أَمـام ربٍّ مُطْرِقِ
كلاَهُما وَهْمٌ لوهْمٍ جَاهلٍ ، ملَفَّقِ !

* * *

جاءَتْ . . تردُّ الظلْمَ مدحوراً إلى طاغوتِهِ
ندامـةً مذعـورةً تصرُخ فى تابوتِهِ !

* * *

جاءَتْ . . تُوجُ نارُها تأَوُّهَ المضْطَهَدِ
وتُضْرِمُ الإباءَ فى جَبينِهِ المستَعْبَدِ !

* * *

جاءَتْ . . ونورُ اللهِ يَحْدو الخَطْوَ فى طريقِها
والكَوْنُ يَسْتافُ عبيرَ الصَّحْوِ من شُروقِها

* * *

والبِيدُ لَيْلٌ ضارِعٌ فى القيدِ حوْلَ الصنَمِ
والناسُ أَوهامٌ تدورُ فى ضَلالِها الملَثَّمِ !

* * *

. . فى خيْمةٍ خيَّم فيها الرِّقُّ منْذُ الأَزَلِ
وغمغَمَ الإنسانُ حَوْلَ قَيْدِهِ المُكبَّلِ . .

* * *

جاءَتْ إليه ، تنْزِعُ الهوانَ من جبينِهِ
وتحصُدُ الإطْراقَ والذِّلَّةَ من جُفُونِهِ !

* * *

جاءَتْ . . منَ الغار . . من النُّور خُطَا « مُحَمَّدِ »
طُوبَى لِمَنْ خفَّ إليها بالضياءِ يَهْتَدِى ! !

قِصَّةُ الْكُوخِ

مرَّتِ الريحُ على كوخىَ فى وقت الأَصيل
وأنا أُصغى مع الأَطيار فى ظل النخيل
وخُطا الأيام تروى قصةَ الماضى الطويل
وحديثَ الفأْس للربوة من ظُلم السنين . . .

* * *

قصةَ الأَرض التى ضيَّعتُ فيها كلَّ عمرى
وسقيتُ الحَبَّ أَيامى وأحلامى وصبرى
فإذا اهتزَّ جَناها يَنهبُ الأَثمارَ غيرى
وأنا أَمضى إِلى كوخى محرومَ اليمينِ . . .

* * *

عَرَقى سالَ رحيقاً فى كُئوسِ الجائرينا
وكفاحى كان للرُّوحِ جِراحاً وشُجونا
وعوادى الظلمِ لم تترك على قلبى أَنينا
لم تُسَطِّرْ منه خَطًّا للأَسى فوق جبينى . .

* * *

وتمادَى الليلُ حتى دَهَمَ الفجرُ ظلامَهْ
وإذا صوتٌ من الله يُدَوِّى كالقيامهْ
رَدَّ لى أَرضىَ تهتزُّ إباءً وكرامَهْ
وضُحًى يهدرُ بالثورة فى كلِّ العيونِ

غَنِّ لِلْمَلَّاح

معَنا يا فجرُ . . وازحفْ بصَباحِ الثائرينا
وانْشُرِ البعثَ وفجِّرْ نُورَه للزاحفينا
وتقدَّمْ ، وترنَّمْ واملأ الدنيا رنينا
نحن من حولك نمضى كلَّ يومٍ ظافرينا . .

* * *

غَنِّ للأَرض التى عادتْ لمَنْ أَحيا رُباها
حرَّةً تُعطيهِ من أَثْمارِها أَشهَى جَناها
غَنِّ للثورةِ . . لم تترُكْ غريباً فى حماها
ينهَبُ الزهرَ ويُبقِى شوْكُهُ للغَارسينا . .

* * *

غنِّ للملاَّح واسمَعْ شدْوَهُ عَبْرَ القنالِ
تُطرب التاريخَ فى شطَّيْهِ أَلحانُ النضالِ
وصدَى ذكرَى غُزاةٍ عاودُوها بالمُحالِ
فانْتهَوْا فيها . . وعادُوا خاسرينا . .
غنِّ مَنْ ساقوا لها أَرواحَهُمْ مستشهدينا
وتقدَّمْ . . وترنَّمْ . . واملأ الدنيا رنينا . .

* * *

غنِّ للأَحرار للشعب الَّذى ردَّ الحياهْ
ومَحا من أَرضِهِ الحرَّةِ أَوْهَامَ الطغاهْ

ومضَى فى موكب الزّحف إلى كلِّ اتجاهْ
لبناءِ الحقِّ والعدلِ كما سنَّ الإلٰهْ
ويدُ الله لهُ . . تحدُو شراعاً وسَفينا ! !

فُقَرَاء!

مع نظرة الفقير وهى تعتز بالسكينة وترفض الذل ! !

فُقَراءُ ؟

لا والله ! !

بل نحن الذين شذا الالهِ يَضُوع فوق ترابهِمْ

يسقيهُمُ لهَبَ الحيــاةِ جــداولاً
خُضْراً تغــرِّدُ كأْسُهــا لربابهمْ

ويزُورهمْ رزْقُ السَّما بيَمينِهِ
عَرَقُ الطّريقِ يَدُقُّ حسرةَ بابِهِمْ

يَشْوى الهجـيرُ دُروبَه . . لكنَّـه
عندَ الوصول . . يسحُّ فوق سَرابِهِمْ

تَخْضَـلُّ نظرتُهُ ، وتُورِقُ نارُهُ
وتميـلُ كرْمَتُـهُ على أَكوابِهِمْ

تُفْضِى بِسِرِّ رحيقِهـا ، وحديثِـهِ
للرِّيح ، حينَ تمـرُّ فى أَعتابِهِمْ

مَنْ هؤُلاءِ ؟ ! . .
هم الَّذين تبرَّجَتْ أَعراسُ كلِّ منعَّم بعَذابِهِمْ

مَنْ هؤلاءِ ؟ !
. . همُ الذين تكلَّمَتْ
للظلم شاهِقةٌ بِذُلِّ رقابِهِمْ !

مَنْ هؤلاءِ ؟ ؟
. . هُم الذين ترنَّمَتْ
أَوتارُ سَطْوَته بدمعِ رَبابهِمْ !

مَنْ هؤلاءِ ؟ ؟
همُ الَّذين تسلَّلَتْ
نظراتُهُ الشَّمّاءُ من أَهْدابِهِمْ

مَنْ هؤلاءِ ؟ !
هُمُ الذين تسلَّقَتْ
شطَحَاتُ عِزَّتِهِ علَى أَصْلابِهِمْ

ومشَتْ على أَضلاعِهم تئِد الصِّبا
وترشُّ تيهَ النَّوحِ فوق شِعابِهِمْ

وتُلمْلِمُ القمـرَ الحزينَ تدُسُّـه
فى صُرَّةِ الحرمانِ تحت ثيابِهِمْ

وتَسومُ سائمةَ الفراغِ وراءَهم
سَوْطَ العذابِ ، ونَهْشَهُ لِغيابِهِمْ

وتصُبُّ نجْمَ الليـــلِ فوق عيونِهمْ
أَقـــداحَ نارٍ ، ولْولَت بِسحابِهِمْ

تَرمي السكونَ بمثلِه ، وتعيدُهُ
رقًّا بِرقٍّ صادِحٍ يشجَى بِهِمْ

أَحبابَ جُوعِ الطَّيرِ . . جاعَ زَمانُهُمْ
وتساقطوا ثَمَراً على أَحبابِهِمْ . .

كلبٌ ، وراهبـــةٌ تلُوك زمانَها
تجتَرُّهُ ضجَـــراً علَى أَسلابِهِمْ

جاعتْ ، فردَّت ذاتَها قوتاً لها
وهُمُ يُرَدُّ لهم هشيمُ سرابِهِمْ

هلكَى إلى هلكَى ، ينوح لهم صدًى
فى الكوخ ينعق بومُه لخرابِهِمْ

صهَروا الحياةَ ، لغيرهم ، وتوكَّلوا
والله يصهـــر دمعَهـــم بثوابهم

و « الحمدُ لله » . . استَمرَّتْ نغمةً
تشدُو الرِّضا لطَعامِهمْ وشرابهم

لم يقطِفوا إلا خريفَ عُرُوقهمْ
وتهدُّلَ الثمراتِ من أَعْصابِهِمْ . .

فُقَراءُ ؟ !
لاَ والله ! !
نحن رَبابةٌ للسَّائرينَ . .
. . نُواحُها غَنَّى بِهِمْ ! !

بَيْنَ اللهِ وَالإِنْسَان

« إلى الذين دميت جباههم من السجود وعميت
قلوبهم عن الإنسان ! ! »

إنْ كنْتَ لاتعرفُ سِرَّ دَمعةٍ يذرفُها الْفَقيرْ
يَسْقِى بِها خَريفَه الْعَطْشانَ فى لُهاثِه المريرْ
فَيزْرعُ الوهْمُ علَى جُفُونِه بُسْتَانَهُ النَّضيرْ
.. ثمارُهُ دانيةُ الْقِطافْ
.. ظلالُه وارفة الضفافْ
لكنَّها لاشىءَ .. حين يَنْحنى ، ويَبْسُطُ اليَمِينْ
حَزينةً ، مسكينةً ، مَقهورةَ الدُّعَاءِ والأَنينْ
تقولُ مِن حَسْرتِها : ربَّاهْ !
يا مُسْرِعاً فى خَطْوِهِ لله :

خَفْقَةَ قلْبٍ تُنْقِذُ الْحَياهْ
وتَخدَعُ المحرومَ عنْ أَسَاهْ ! !
إِنْ كنتَ لا تُبْصِرُ هذا السرَّ فى خشوعِكَ الْقَرِيرْ
فَأَىُّ شىءٍ نحوَهُ سبَّابَةٌ كذَّابةٌ تُشِيرْ ؟ !
إِنْ كنْتَ لا تَسْمَعُ سِرَّ آهةٍ علَى فم الْيَتيمْ
تسْمعُها ! ! لكنَّها تمرُقُ منْ ريائِكَ الرَّخيم ،
أُنْشودَةً مِنْ وَتَرٍ عاثتْ علَيْه رعشَةُ النَّسيمْ
يَعْزِفُها تلَفُّتٌ سَجينْ
مِنْ نَظْرةٍ شُلَّتْ على الجبينْ .

يغتالُها الْمَلالُ ، والحَيْرةُ ، والتَّوجُّعُ الدَّفينْ
ويَشتكِي إباؤُها الشقيُّ مِنْ سُخْرِية العيونْ
يَصيحُ مِن أغلاله : رَبَّاهْ ! !
يامُسْرِعاً فى خطوهِ للهِ . .
خَفْقَةَ قلْبٍ تُنقِذُ الحياهْ ،
قبلَ اتِّجاهِ الخطوِ للصَّلاه . .
إنْ كنْتَ لاَ تسْمَعُ هذا السِّرَّ فى بكائِهِ الأَليمْ ؛
فأَىُّ ربٍّ نحوه اتَّجَهْتَ فى سُجُودِك العظيم ؟ !

* * *

إنْ كنْتَ لا تَدْرى بأَنَّ اللهَ لَمْ يظْلِمْكَ فى نعْمتِهِ
إلاَّ لتمتَدَّ بها للبَائسِ المحْروم مِنْ لُقْمَتِهِ

لِكلِّ كفٍّ شَلَّها البغْيُ لِتَنْسابَ إِلى نَظْرَتِهِ . .
وتَغْتَدى بِوَجْهه الرَّحيقْ
يَلعَقُ منه زيْفُكَ العريقْ
وَيترُكُ الإِحساس بالإِنسانِ فى إِيمائِها الحزين
مَتاهَةً صمَّاءَ . . رنَّ فوقها تفجُّعُ السِّنينْ . .
يصيحُ مِنْ أَساهُ : يارَبَّاهُ !
ياساجداً بوجهِه لله . .
يامغرقَ الْوُجوه فى تُقَاهْ !
وسابِحاً بالزُّور فى هُداه !
إِنْ كُنْتَ لم تَدْر ضياءَ اللهِ فيما شَعَّ مِنْ رَحمتهِ ؛
فكيف يا زُورَ التُّقَى كفَّنْتَ هذا السِّرَّ فى سجدتِهِ ! !

قُبَّرَةُ الإِحْسَان

« إلى المرابين بالصدقات في خريف
المساكين ! ! »

حَطَّتْ كالنَّغْمــةِ فى أُذُنى
صــفراءُ . . صــداها يلسَعُنى
ويصُبُّ أَسـاها فى بدنى
. . ناراً ، بالرحمة تسقينى
بثُمالة قَــدَحٍ مَفتــونِ
يترنَّح فى كفِّ السّــاقى
ويَجُودُ بفَضْــلةِ أَرزاقِ
. . لم تلْقَ لجرعتها كاسَا
فأَتَتْ تتلَمَّس أَنفاســا
مِن صدرٍ ، صادٍ للكفنِ ! !

لم أَلْقَ بها قطرَةَ عَرَقٍ
مما أَغدَقْتُ على طُرُقِ
مِنْ دمعٍ يُوقِظ لى رَمَقى
.. ويَغطُّ بآهةِ مسْكينِ
تتضَوَّرُ فىَّ .. وتَشْوينى !
تَتَبَرَّجُ فى ضوءٍ جاثِ
كشعاعٍ مَرَّ بأَجداثِ
.. عرَّاها زاداً للأَزَلِ
ولُهاثاً حَدَّقَ للأَجَلِ
وانقَضَّ .. ليَشْربَ مِنْ حُرَقِ

* * *

تَتَحدَّرُ من كفٍّ عُلْيـا
خاشعةِ الوخْزَة . . كالدنيا
. . سكبَتْ لى وهْماً يُغْرِينى
وربيعَ رياءٍ . . يَرْوِينى !
وإذا ببقايا تَغْـرفُها
من كلِّ يمينٍ تَنْزِفُهـا
. . لتُبِلَّ بها صدأَ البُؤسِ
وتَرُشَّ على كمـدِ النفْسِ
ذلاًّ بغَياهبِـهِ أَحيا . . ! !

* * *

كالرُّوح أَتَتْنى . . كالبَغْتَهْ
تتســـاقط حولى من نَبْتَـهْ
كاذِبةِ الرحمةِ . . مُنْبَتَّـهْ . .
. . نفذَت بالحَسْرَةِ فى كبدى
أَغـلاَلاً قابِعَـةِ الأَبَدِ !
تعلُو . . وتُخَفِّضُ نظـراتى
وتُضِىءُ الذُّلَّ بِدَعَـواتى . .
. . هالاتِ رياءٍ لأَخيهـا
ولمن للأَعْيُنِ يُعْطيهـا
لتَجُوبَ الأَرضَ على لفَتَهْ ! !

* * *

حَطَّتْ . . وسمعْتُ لها زَجلاً
صيَّرنى عبْـداً مُبْتَهلاَ
ودعاءً مَقْهـوراً وَجِلاَ
. . يدعو ليمينٍ تُعْطينى . .
ولقطـرةٍ ذلٍّ تكْوِينى
وأَنا الظَّمـآنُ إلى حَقِّى
فى دربٍ ، لا يعرف رِقِّى . .
ولشَىْءٍ . . سَمَّوْهُ رِزْق !
. . سأُواصـلُ سَيْرىَ لأَرَاهُ
حُرًّا . . لا تُطْـرِقُ عَيْنـاهُ
. . وسِواهُ . . لا أَعرف بَدَلاً ! !

قِدِّيسُ السَّلَام

«فى يوم ٣٠ يناير ١٩٤٨ اغتالت يد أثيمة قديس السلام ، وزاهد الهند العظيم غاندى . . وهو فى غمرة صلاته ! . فبكاه الشاعر بهذه الدمعة غداة إحراق جثمانه» .

أيها القاتلُ غُفْرانَ الحَيَاهْ
وهو لله قد امتدتْ يَداهْ
جاءَ يسعَى خاشعا نحو الصَّلاهْ
تَوْبةً تسعَى لصَدْرِ المُذْنِبِ

* * *

وإذا صوْتٌ من الغـدر أَثيمْ
لطمَتْ أَضـواءَها منه النجومْ
وعَوت شمسُ البرارى . والتُّخُومْ
أَجهشَتْ للعـابر المقْتَرِبِ

وغدَتْ كالريحِ فى ليلِ الصخُورْ
لعنةُ الرُّوحِ على الأُفْقِ تَدُورْ
تنهشُ الكوْنَ ، وتَروِى للدُّهور
ما رأَتْ من رِجْس هذا المُذْنِبِ !

* * *

زاهِدٌ عُريانُ . مسنودُ اليَدَيْنْ
مِن ضنَى جسمٍ على قدِّيستَيْنْ
أَنهكَتْ منه الليالى جانبَيْنْ
فسَرَى كالطَّيْفِ بيْنَ الموْكب

* * *

أَثَرُ الزُهْد عليه والْيَقِينْ
تتلاشَى فِيهِ أَجفانُ السنينْ
راكعُ النَّظرة ، موصولُ الجبينْ
بغُيُــوبٍ سرُّها لم يُكْتَبِ

* * *

ناطقُ الإيماءِ ، رُوحىُّ الكَلامْ
رقْرقَ الحُبُّ خُطاهُ والسلامْ
ومضَى والدهرُ منه فى زحامْ
حيَّرَتْهُ حكْمَةُ الشَّيْخ الصَّبِى

* * *

فى يديْه رُقْيَةٌ تَشفى العُصُورْ
مِن جِراحاتِ الدَّنايا والشرورْ
سَمْحَةٌ تنسخُ حيَّاتِ الصُّدورْ
زهْراً يُسْقَى بمـــاءِ الغَضبِ

* * *

أَعْزَلٌ أَخْزَى بِيُمْناهُ السِّلاحْ
ورمَى طَرْفاً علَى القيد ، فطاحْ
وغَزَا بالصَّمتِ أَهوالَ الكِفاحْ
وهْـوَ للأَغْـلالِ لم يَقْتَربِ

* * *

شقَّ أبهاءَ القُصورِ الضَّاريَهْ
عارياً ، تكسُوهُ روحٌ عاتيَهْ
وتُحامِيهِ القِبـابَ الطاغيـهْ
عنْـزَةٌ ، هزَّتْ جيوشَ المَغْرِبِ

* * *

علَّم الدنيا بها سِرَّ الجِهادْ
وغـدَتْ سيرتُـها لِلعبـادْ
ينضَبُ الماءُ ، ويفنى كلُّ زادْ
وتُرابُ الهنـد أَغْلَى مأْربِ

* * *

لَبَنُ الشَّاةِ ، له أَشْهَى رحيقْ
وصَدَى الأنْوال ، صَدَّاحٌ عميقْ
ولَدَى المِغْزَلِ ، سحرٌ لا يُفيقْ
مِنْ هواه كُلُّ عُريانٍ أَبِى !

* * *

شرْعُهُ كان علَى الهند صَفاءْ
لَبنيها الكادحـــين الأَشقياءْ
أَينما ولَّوْا وجُوهاً فالسَّماءْ
صوَّرَتْهُ معْبَداً فى السُّحُبِ

* * *

ثائرَ الشرقِ من الأُفق البعيدْ
قمْ تأمَّلْهُ من الحزن يَميدْ
أَفزعَتْ روحُكَ أَغلالَ العَبيدْ
فمضَى القيـدُ ذليلَ المَهْرَب

* * *

عبقريٌّ ، أَسيَوِيٌّ ، لا يُرامْ
سِرُّهُ الجبَّارُ يَوْماً ، للأَنامْ
هاجَتِ الهندُ ، فخلاَّها وصامْ
فانجلَتْ عنها غُيـومُ الكُرَبِ

* * *

يا مُذيقَ الرِّقِّ منْ نار العذابْ
سيرةً لم يَرْوها أَقْسَى عِقابْ
كلَّما صُمْتَ . . علَى جَنْبَيْه ذابْ
وتوارَى فى رفاتِ اللَّهبِ

* * *

أَيْن محرابُكَ ؟ يحكى للزَّوالْ
قصةَ الإنسان فى أَعلى مِثالْ
أَيْن آياتُكَ ؟ تُتْلَى لِلْجِبال
فتَراها مُطْرِقـاتِ السَّبْسَبِ

* * *

أَين مَن أَلْقَى إلى الغَرب عَصاهْ
فإذا بالشَّرْق نَبَّاضُ الحياه ؟
وإذا بالغاصب ارتاعَتْ قُواهْ
وجثَتْ أَسيافُهُ فى الملْعَبِ

* * *

ابْكِ ياشرقُ علَى الزُّهْد الجَسُورْ
وانقل الحكمَةَ عنه للدهـورْ
وإذا الرِّيحُ على الأُفْق تَدُورْ
قل لها : خُطِّى صداهُ واكْتُمى !

* * *

حاملُ المشعَل . فى هَوْل الظَّلامْ
داعِياً فى كل أَرْضٍ بالسَّلامْ
فاجأَتْهُ غَدْرةٌ . . عارُ الأَنامْ
خالدٌ فيها خلودَ الْحِقَبِ

* * *

طافتِ الهندُ علَى جُثْمانِهِ
تشْرَبُ الإِصرارَ من أَجفانِهِ
لم يكن للمَوْتِ فى أَكفانِه
أَىُّ شىءٍ غيرَ هــذا الخشَبِ

* * *

فهْوَ للسِّلْمِ على كلِّ لِسَانْ
غُنوةٌ تُخزِى صريرَ الصَّوْلَجانْ
وهْوَ للحربِ صَدًى يَفنَى الزَّمانْ
وصداهُ عاتِبٌ . . لَمْ يَذْهبِ !

* * *

شُعْلَةُ الذَّات

مع «إقبال فيلسوف الشرق وشاعر الإسلام»

(الكليم إذا زال عن نفسه تاه . .)

«إقبال»

قُلْ لِمَنْ مَدَّ يدَيْهِ فى الهَجيرْ
سائلاً . . قطرةَ ماءٍ من غَديرْ
سائِلاً . . رَشْفَةَ ظلٍّ من عبيرْ
مدَّهُ اللهُ على الروض النَّضيرْ :
لَسْتَ حيًّا . . إنْ تسَوَّلْتَ رُبَاه ،
ومَدَدْتَ الكَفَّ تستجْدى الحَياهْ . .
كنْ هجيراً ترهَبُ النارُ لَظاهْ
لا نَسيماً يُفزِع الوهْمَ شَذاهْ
واقتحمْ بالذَّاتِ . . أَهوالَ السعيرْ
تنسخ النارَ ربيعاً . . فى ضُحاهُ
جَدْوَلٌ ، يَضحَكُ بِالْماءِ النَّميرْ !

قُلْ لمَنْ كبَّل أشواقَ الحياه
باحثاً عن سرِّها قبل خُطاهْ
واقفاً شُلَّتْ على السرِّ يداهْ
سائلاً ، أين من الغيب مداه ؟ :
لستَ حيًّا ، إنْ تَهيَّبْتَ القدَرْ
وطلَبْتَ السرَّ من قبل السفَرْ . .
كُنْ طريقا مِنْ رَحيقٍ وشرَرْ
لا وُقُوفاً . . يتلَهَّى بالصوَرْ
وامْضِ بالذات . . إلى مالاتراهْ
تُبْصِرِ السِّرَّ ، تَجلَّى وظهَرْ
وعلى صدرِكَ قد ألقى عَصَاهْ !

قُلْ لمَنْ أَصغَى لنَوْح البُلْبُلِ
عاشقاً يبكى ضَياعَ الأَمَلِ
ذائباً فى يأْسه المشتَعِلِ
قاطفاً زهْرَ خريفٍ مُمْحِلِ :
لَسْتَ حيًّا . . إنْ تَلَمَّسْتَ البكاءْ
قَدَحاً يَسْقيكَ أَوهامَ الرجاءْ . .
كُنْ غِناءً مُضْرِماً وجْدَ السماءْ
لا صدَى نَوْحٍ لقَيْثار الفَناءْ !
واسكُبِ الذاتَ . . بنايٍ مُشْعَلِ
تُبْصِرِ الكونَ طيوراً من ضياءْ
ساجعاتٍ فوق شط الجَدْوَلِ !

قلْ لمَنْ أَحْنَى لغيرِ اللهِ رأْسَهْ
ولمَنْ صَبَّ لغيرِ اللهِ كأْسَهْ
خائفاً يشربُ من كفَّيْهِ نفْسَهْ
ومنَ الذِّلَّة لايُدْرِكُ حِسَّهْ :
لَسْتَ حيًّا . . إنْ توهَّمْتَ الوُجودا
سادةً هَشُّوا على الأَرضِ عبيدا . .
اسأَلِ الذاتَ . . تجدْ فيها السجودَا
لِسِوَى اللهِ ، رياحاً وحَصيدا
واسأَلِ اللهَ . . لمن أَطلعَ شمسَهْ ؟
لسوَى الأَحرار لم تُشْعِلْ وَقوداً
لِصَبَاحِ الشَّرق أَوْ تسْقَى أَمسَهْ !

هكذا جلجلَ مِزمارٌ رخيمْ
فى زَبُورٍ خالد الشَّدْوِ يتيمْ
مدَّ جبريلُ جناحاً فى السديم
ودَعا الأفلاك تُصغى والنُّجوم
لِصَداهُ الحرُّ فى قيد التُّرابْ
وهْوَ يَنْقَضُّ عليه كالشهابْ
ويَرَى سَجْدتَه بين الْخَرَابْ
فى رُبى أندلسٍ تسقى القِبابْ
من رحيق لم تزل منه الكرومْ
تعْصِرُ السحر ، وتشدو للإيابْ
وينادِى مَجْدَها ضَرْبُ الكَليمْ ! !

نخلةُ « الدَّاخِلِ » عادتْ بجناها
بعد أن أَرعَشَ بالنَّايِ ثَراها
وبدمع الروح غنَّى وسَقاها
فَرَبَتْ ظلاًّ وتمْراً وشِفاها
تَسمع التاريخَ خلفَ الحُجُبِ
يتغنَّى بحُداة الشهُبِ
يوم كان الغرب دنيا غيْهبِ . .
وأَتى المصباحُ فى كفِّ نبى
يوقظ الأَيامَ من عاتى كراها
بضياءٍ شعَّ بين العَربِ
وكتابٍ خطَّ للأَرض هداهَا ! !

وثَرَى قرطبةٍ حنَّ إليهِ
فإذاهُ سجدةٌ بين يديْهِ

وإذا المحرابُ إصْغاءٌ عليْهِ
شَعَّ ترنيمُ الهوَى من شفَتَيْهِ

وهْو قيثارٌ من الشرق يغنِّى
ويعيدُ المجدَ لحناً بعد لحن

طارقٌ فى بأْسهِ خلف المِجَنِّ
و«ابنُ عبَّاد»[1] .. وما لاقى بسِجْنِ..

وأَسَى الحمراءِ ينهال لَدَيْهِ

---

(١) ابن عباد : هو المعتمد على الله محمد بن عباد اللخمى ولد ببجاية بالأندلس ، ومات بأغمات بمراكش ، شاعر رقيق ، كانت حياته وشعره مناراً لوحى الشعراء منذ عصره إلى اليوم ، تولى إمارة إشبيلية سنة ١٠٦٨ ، انتصر عليه يوسف بن تاشفين سنة ١٠٩١ وأسره وسجنه بأغمات .

بمَراثٍ لم تَذُقها أَىُّ أُذْنِ
سكبَتْها لوعَةٌ من جانبَيْهِ ! !

طائِرَ الإسلامِ ، رجِّعْ نغَمـا
كنْتَ فيه للَّيالى حلُمَا

أَشعلِ النـاىَ التى هَـز السَّمَا
وسقَى الأَعماقَ شدْواً مُلْهِمَا

ومن الخُلْدِ تلَفَّتْ . . هاهُنَا . .
تجـدِ الأَغـلال تَهْـوِى حولَنا

قد حصَدْنا الرِّقَّ من آفاقِنا
وصَهرْنا القيْـد من أَعناقنـا

وَدَعونا اللهَ فى إشراقِنا
أَن يردَّ الشرقَ حرًّا مثلمَا
كان من قبلُ.. إلى أَعتَى المُنَى
يعصرُ النُّورَ، ويَسْقى الظُّلَمَا!

مِنْ نَارِ السَّكِينَة

إلٰهى ! . . وما زال فى النَّاى سِرٌّ
وشطٌّ من الْوَحْى ، ما زُرْتُهُ ،

ولا شربَتْ حيْرتى منـه لحْناً
ولا أىَّ يومٍ بها ، جئْتُهُ . .

عميقٌ ، كحُلْم الرُّؤى فى خيالٍ
على غَفْـوَة الروح كفَّنْتُـهُ . !

تـوارَى ، وأَسبَـلَ أَنـغـامَه
على وتَرٍ ، كنتُ قطَّعْتُـهُ

وأَحرقْتُ فيـه ربيـعَ الحياة
ومِنْ غَفْـوَة القلبِ ودَّعْتُـهُ . .

عميقٌ . . . ولكنَّـهُ سَـابحٌ
قريبٌ ، إذا ما تذكَّرتُهُ

وذكراه فى كلِّ ما أَشْتَهى
وفى كلِّ شىءٍ تعشَّقْتُهُ

أَراهُ على الزهـر ، لكننى
إذا صافَح العطرَ غافلْتُـهُ

أَراهُ على النهر ، لكنَّنى
إذا عانقَ المَوْجَ غادرْتُهُ

أَراهُ على الـدَّوْح ، لكنَّنى
إذا مايَلَ الغصنَ زايَلْتُـهُ

أَراه على الأُفْق شيئاً أَضاءَ
ومِن نَعْش نارى توهَّمْتُهُ

أَراهُ على الريح ، صوْتَ الحنينِ
تَجسَّدَ حتَّى تأَمَّلْتُهُ ،

وأَبصرْتُ فيه مَزارَ الخيالِ
علَى معْبَدٍ كنْتُ حرَّمْتُهُ

وأَودعتُهُ فى جَناز الْغُروب
لقاءً مع الغيب واعَدْتُهُ !

أَراه بِذاتىَ فى كل همسٍ
وفى كل طيفٍ تَخيَّلْتُهُ

أراه . يسيرُ معى فى الحياة
كيانا خَفيًّا . . وصاحبْتُهُ

وقاسمْتُهُ كلَّ زاد السكون
وكلَّ الهوَى حين صافَيْتُهُ

وكلَّ الصباح ، وكل المساء
وكل الدجَى حين خامَرْتُهُ

وكلّ الجراحِ ، وكل النُّواح
وكلَّ الأَسى ، إنْ ترشَّفْتُهُ

وكلَّ الأَثير ، وكلَّ العبير
وكلَّ المصير . . إذا كُنْتُهُ !

وفى كلِّ ذرَّات هـذا الوجـود
أراه رنيـناً تَسَمَّعْتُهُ . .

وأَصغيتُ فيـه ، وكرَّرتُهُ
وجُـوداً لذاتىَ أَخفيْتُهُ !

إلٰهى . . مِنْ أَين أَهفُـو إليـه ؟
ودربى لرؤياه ضيَّعْتُهُ !

وفجَّرتُـهُ فى زمـانى ، زماناً
وتيهـاً على التِّيـه واصلْتُهُ . .

وما كان إلاَّ غِنـاءَ الظُّنـون
وشجـواً من الحُبِّ أَقلَقْتُـهُ

وأَشعلْتُ فيه صلاةَ الرَّباب
تُغنِّى زمانى . . . وما ذقْتُهُ !

تلاشَيْتُ فى كل درب ، فما
أُحسُّ بغَيْر المدَى ، فُتُّهُ !

وأَوْغَلْتُ . . حتى سقانى الطريقَ
ثمالاتِ سحْرٍ ، تصوَّرْتُهُ . .

شَوَانى . . وأَبقَى رمادَ الضياء
وما زال جمْراً تشَهَّيْتُهُ

تبَسَّم فى ناره كلُّ شىءٍ
وتَنْهيد نايى كما جئْتُهُ !

علَى الريح يَهْـدرُ . . لا هدأَةٌ
ولا ظِـلٌّ ظِـلٌّ تمَنَّـيْتُـهُ !

ولا سجْـوَةٌ فى مهبِّ الخيـال
يُغَنِّى بهـا ما تلقَّنْتُهُ !

نَشدْتُ السَّكينَةَ فى كل جَمْرٍ
على وتـر القلب أَوْقَدْتُـهُ ،

ومالى يدٌ فيه ، إلا صدًى
كما تسمَعُ الروحُ رَدَّدْتُهُ

غنائى ، ومنِّى ، ومالى سبيلٌ
إليه . . فأَنَّى أَتَى سُقْتُهُ ؟

سمعتُ به الكوخَ تحت الظَّلام
عويلاً من البـؤس . . غنَّيْتُـهُ

وأقـداح رِق . . بكفِّ الطَّغـاةِ
أَسـاها بـنايى تجرَّعْتُـهُ !

وشَلَّتْ يدُ اللهِ طاغوتَها
بفَجْر على النِّيلِ قَدَّسْتُـهُ

فنَاغمْتُ فيه انْتفَاض الحيـاةِ
بسحْـرٍ من اللهِ أُلهمتُـهُ ! !

وسَبَّحْتُ لمَّـا أَطَـلَّ الضِّياءُ
ودَكَّ الظَّـلامَ الذى عِشْتُـهُ ! !

محمود حسن إسماعيل وعالمه الشعرى الفريد

دراسة بقلم
الدكتور على عشرى زايد

يقترب الشاعر من جوهر الشعر وحقيقته بمقدار ابتعاده عن اجترار ماهو عادى ومبتذل من الرؤى والأخيلة والصور ، وبمقدار نجاحه فى تشكيل عالم شعرى خاص على أكبر قدر ممكن من التفرد والخصوصية دون أن يقطع الجسور ووسائل الاتصال بينه وبين جماهيره ؛ حتى لا يغدو هذا العالم الشعرى المتفرد جزيرة مهجورة يعيش الشاعر فيها وحده فى صقيع العزلة الأليمة .

وفى ضوء هذه الحقيقة فإن (محمود حسن إسماعيل) يعد واحدًا من أبرز شعرائنا العرب المعاصرين ، بل لا إخالنى مغالياً إذا قلت : إنه واحد من أبرز شعرائنا العرب فى كل العصور ؛ فقد استطاع منذ دواوينه الأولى أن يشكل ملامح عالم شعرى فريد شديد الخصوصية والأصالة ، وكانت وسيلته إلى تشكيل ملامح هذا العالم رؤية شعرية بالغة الشفافية ، وولهاً روحيًّا على قدر فريد من العرامة والتأجج ، وقدرة خارقة على السيطرة على الأدوات الشعرية

وتطويعها لتشكيل ملامح هذا العالم الفريد ، كل ذلك دون أن ينسف الجسور بينه وبين قارئه الجاد الذى تابعه فى رحلته الشعرية الظافرة الطويلة التى لم يتخل عالمه الشعرى على امتدادها عن ذرة واحدة من أصالته وتفرده ، ولم يتجمد عند شكل معين ، بل ظل متجددًا متطورًا حتى ألقى الشاعر عصا الترحال ، واستقر فى ظلال الأبدية .

بيد أن حرص (محمود حسن إسماعيل) الشديد على أن تظل لعالمه الشعرى هذه الملامح المتفردة جعل قارئ شعره – شأن كل قارئ شعر عظيم – محتاجاً إلى التحلى بقدر كبير من الجدية والإخلاص قبل أن يفكر فى ارتياد آفاق هذا العالم الرحيب الغريب ؛ فالقدرة على استيعاب الكشوف الفنية والروحية للشاعر العظيم لا تتيسر إلا لقارئ ينشد فى الشعر شيئاً أعمق من المتعة السطحية العابرة التى تحققها دغدغة الأسماع بأوزان مطربة لا تضم إلا كل ما هو عادى ومبتذل من الرؤى والأخيلة والأحاسيس والأفكار . . . قارئ يوقن أن قراءة الشعر الحقيقى نوع من المشاركة فى إبداعه ، ومن ثم فإن هذه القراءة تتطلب قدرًا من الجهد والمعاناة معادلاً لما بذل الشاعر منهما فى سبيل تشكيل ملامح هذا العالم الفريد حتى يمكن القارئ أن يكتشف أسرار هذا العالم ، ويعيش تلك النشوة الروحية العميقة الغامرة التى تتحقق بمشاركة الشاعر فى كشوفه الروحية الجليلة . ولعل هذا هو سر ما يشعر القارئ العَجِل لشعر (محمود حسن إسماعيل) من إحباط ، حين ينشد فى هذا الشعر فكرة جاهزة بسيطة ، أو ثمرة دانية يقطفها

ويمضى إلى حال سبيله ، فشعر (محمود حسن إسماعيل) ومثله كل شعر حقيقى لا يقدّم لمثل هذا القارئ – وما أكثره بين جماهير قرائنا – ما ينشده من فائدة سطحية سهلة وسريعة . ولهذا شاع عن هذا الشعر أنه غامض . . . وأصبحت هذه التهمة حاجزاً يحول بين عدد كبير من القراء وبين الولوج إلى عالم من أثرى العوالم وأحفلها بالشعر الحقيقى العظيم .

إن شعر (محمود حسن إسماعيل) صعب ، هذه حقيقة لا ريب فيها ، وهذه الصعوبة تأتى من حرص الشاعر على التفرد والأصالة . . . ومن رغبته العارمة فى ارتياد آفاق بكر لم تكتشف بعد . . . ومن قدرته على رد اللغة إلى بكارتها الأولى وإكسابها طاقاتها التصويرية الخارقة التى كانت لها فى عصورها الأسطورية البدائية .

إن شعر (محمود حسن إسماعيل) صعب ، لأنه متفرد ، وتلك هى أزمة كل فن عظيم . ولكن تفرد عالم (محمود حسن إسماعيل) الشعرى لا يعنى ابتعاده عن مشاكل الناس وهمومهم العامة ؛ فقد كان منذ دواوينه الأولى يملك رؤية اجتماعية على قدر كبير من الوضوح ومن النفاذ ، بل من الحدة أحياناً . . . ولم تفقد هذه الرؤية حدتها إلا فى دواوينه الأخيرة عندما تلاشت فى رؤية إنسانية وصوفية أكثر رحابة وروحانية .

والديوان الذى بين أيدينا شاهد على مدى نفاذ هذه الرؤية الاجتماعية ، ومدى حدتها . . . دون أن تفقد مع ذلك شيئاً من تفردها وغرابتها ، فلدى

شاعرنا قدرة غريبة على تحويل أشد الأشياء واقعية إلى ملامح وقسمات شديدة الخصوصية فى عالمه الشعرى الغريب : فالديوان تجسيد لرغبة عارمة فى تغيير كل ما هو متخلف وردىء فى هذا الوجود ، وإصرار عنيد على اجتياز كل العقبات وكل مظاهر التخلف والجمود إلى كل ما هو مضىء ونبيل .

وهذا الإصرار العنيد يواجهنا حتى من قبل أن نفتح الديوان فى هذا العنوان الباتر على الغلاف « لابد » . . . وهذا العنوان الذى يحمله الديوان هو نفسه عنوان أولى قصائد الديوان ، بل إنه فى الحقيقة عنوان على أبرز ملامح رؤية الشاعر فى الديوان كله ، فالمكون الأساسى فى هذه الرؤية هو هذا الإصرار العنيد على التغيير الذى يتفجر من هذه العبارة الحاسمة « لابد » . . . ولقد استطاعت عبقرية الشاعر أن تنأى بهذه الرؤية عن مزلق الخطابية والشعارات والمباشرة الذى كثيرًا ما تنزلق إليه مثل هذه الرؤى الاجتماعية . . . ونجح الشاعر فى أن يحول هذا الإصرار إلى نشيد شعرى جليل ينتمى إلى عالم (محمود حسن إسماعيل) الشعرى ، ويحمل كل ملامحه وكل سماته الفريدة .

وتعتبر قصيدة « لابد » أولى قصائد الديوان والتى منحته عنوانه اللحن الأساسى فى هذا النشيد الجليل حيث تعلو فيها – بدون أية خطابية – نغمة الإصرار الشديد على تحقيق كل الأهداف النبيلة للنضال ، ويبلغ الشاعر قمة رفيعة فى تصوير هذه الاندفاعة الجارفة التى تكتسح كل العقبات ، التى تعترض طريق الوصول إلى الهدف ، مستغلاً كل طاقات لغته التصويرية الخارقة ، حتى

ليكاد القارئ يسمع عصف هذه الاندفاعة ، ويحس بحرارتها . . . ومن ثم فإن الشاعر يستخدم مجموعة من أشد الأفعال عنفاً وعرامة – والعرامة ملمح من أبرز ملامح رؤى (محمود حسن إسماعيل) الشعرية عامة – فى تجسيد عنفوان هذه الاندفاعة :

لابد أن نسير
ونجرف الأقدار من طريقنا الكبير
ونعصر الرياح فى تلفت المصير
ونصعق الهشيم فى احتضاره الأخير
.....
انصهر القيد ، وذابت غشية الظلام
وانداح كل واقف فى غضبة الزحام
.....
وانطلقت من رقها عواصف الزئير
بفجرها ، وجمرها ، وأمسها المرير

ولننظر فى الأفعال « نجرف » « نعصر » « نصعق » « انصهر » « ذابت » « انداح » « انطلقت » ولنتأمل مدى ما يتفجر منها من عرامة وعنفوان ، ولنلاحظ مجموعة الأسماء التى دارت فى فلك هذه الأفعال ؛ لتدعم تأثيرها الإيحائى العارم من مثل « الرياح » و« غضبة » و« الزحام » و« عواصف »

و« الزئير » وغير ذلك من المفردات التى تتآزر كلها على تجسيد هذا الإصرار العارم ، وتتمركز كل هذه المفردات والعبارات حول هذه العبارة الحاسمة « لابد أن نسير » التى تمثل النغمة المحورية فى القصيدة التى يفتتح بها الشاعر كل مقطع من مقاطعها .

ولكى يبرر الشاعر فنيًّا عرامة هذه الاندفاعة وينأى بها عن أن تكون مجرد مبالغة تصويرية غير ذات معنى - فإنه يلجأ إلى تحقيق نوع من التعادل التصويرى عن طريق إبراز ضخامة العقبات التى تعترض طريق هذه الاندفاعة ، والتى تبرر عرامتها واكتساحها ؛ فأمام كل نبضة فى الاندفاعة عقبة كأداء ... أمام « نجرف » « الأقدار » وأمام « نصعق » « الهشيم » وأمام « انصهر » « القيد » وأمام « ذابت » « ىشية الظلام » وأمام « انداح » « الوقوف » . . إلخ ، وهكذا يتحقق هذا التعادل والتوازن الفنى الذى يبرر التركيز على تجسيد هذه الاندفاعة ، وتبلغ براعة الشاعر مداها حين يجعل العقبات ذاتها خيوطاً فى النسيج التصويرى لملامح الاندفاعة : فيغدو الهشيم مثلاً مفعولاً لنصعق ، ويغدو القيد فاعلاً لا نصهر ، وتغدو غشية الظلام فاعلاً لذابت ، ويغدو كل واقف فاعلاً لانداح ... وهكذا ...

وتستمر القصيدة عقب ذلك صورة من صور الحوار الفنى البارع بين هذين القطبين الأساسيين من أقطاب رؤية الشاعر فى الديوان ، وشكلاً من أشكال الصراع بين هذين البعدين المتنافرين أبدًا .

ولا يلبث الشاعر أن يضفى على هذه الاندفاعة العارمة طابعاً إنسانيًّا شفيفاً ، ليبرز وجهها الوضيء الألاق متمثلاً فى غاياتها النبيلة الرائعة التى تتحدى كل جهامة الواقع ، وكل صلابة العقبات وقسوتها ، والتى تتحول فى إطارها هذه العرامة إلى صورة بالغة العذوبة من صور الرقة والوداعة :

لابد أن نسير
ونقطف الظلال من محاجر الهجير
ونلقط الحبة من مناقر النسور
ونبذر الربيع فى مخالب الصخور

إن الشاعر يهدف إلى أن يصنع فردوساً إنسانيًّا ظليلاً وسط جهامة الواقع ، وقسوته وصلابته ، ولا يكف عن مزجه الرائع بين بُعْدى رؤيته المتعارضين : الظلال ومحاجر الهجير ، الحبة ومناقر النسور ، الربيع ومخالب الصخور . والمزج هنا ليس مزجاً سلبياً بين عنصرين جامدين ، وإنما هو مزج إيجابى خلاّق يتم من خلال فعل إيجابى فى كل صورة من صور المزج ، فعل ينتصر للقطب النبيل من القطبين المتصارعين .

وعلى هذا النحو يستمر الصراع بين قطبى رؤية الشاعر على امتداد القصيدة التى تنتهى دون أن ينتهى هذا الصراع ، وما كان له أن ينتهى ؛ فهو صراع أبدى وإن كان الشاعر قد حدد موقفه فى حسم من هذا الصراع ، حيث اختتم

القصيدة بما افتتحها به من أن انتصار الطرف النبيل فى هذا الصراع الأبدى لا يتم إلا بالإصرار العنيد . . . المتمثل فى عمل إيجابى مكتسح ... وتتردد النغمة المحورية فى الختام ... مكررة هذه المرة تأكيدًا لهذا الإصرار المتفجر من ثناياها « لابد أن نسير ... لابد أن نسير » .

ويأخذ هذا الصراع صورًا وأشكالاً شتى عبر قصائد الديوان ، ويتجسد طرفاه فى رموز متعددة ، ففى قصيدة « حادى التغيير » يجسد الشاعر من جديد قطبى الصراع : الخير والشر ، النور والظلمة فى رمزين جديدين : الظلام الذى كانت تهيم فى دياجيره الإنسانية قبل أن يأتيها حادى التغيير بكل ما يتمثل فيه هذا الظلام من رموز جزئية غنية ، والنور الذى فجرته ثورة السماء فى طريق الحرية للإنسان مع حادى التغيير ، فأضرم التغيير فى ليل الإنسانية الجاثى على العصور ... حتى فى هذا الصراع على الرغم من أن الانتصار فيه يتم بفعل سماوى علوى لا دخل لإرادة الإنسان فيه -- فإن الشاعر يحرص على إبراز الدور الإيجابى لرسول السماء الإنسان الذى يتجلى فى فعل شبيه بذلك الذى أصر فى القصيدة الأولى على أنه الدرب الذى لا محيد عنه (المسير) بكل ما يعنيه من اقتحام للعقبات ومن استشراف لواقع أكثر وضاءة ... والفعل المعادل فى قصيدتنا هذه للمسير فى القصيدة الأولى هو الهجرة ، وهى ذاتها صورة من صور السير ؛ فالرسول عليه السلام مضرم التغيير فى ليل الإنسانية الجاثى على العصور :

شد خطاها فى الدجى وسارا
فى هجرة شقت لها النهارا
وشعشعت فى دربها الضياء
وأترعت فى قلبها السماء
أعتى شعاع فى ضمير الزمن
يهدى بنور الله كل مؤمن

ويظل عنوان الديوان « لابد » بنبرته الباترة يلقى بظله على معظم قصائد الديوان ، فيطالعنا هذا الوجه المصمم الحاسم من أكثر من قصيدة من قصائد الديوان ، حتى تلك القصائد التى تهوم فى جو صوفى شفيف ، وتعبر عن رؤية صوفية روحانية تتفجر منها هذه النبرة العارمة التى تحول الرؤية الصوفية من صورة من صور السلبية والموات إلى فعل إيجابى هادر خلاق : فى قصيدة « شعلة الذات » التى استلهمها الشاعر من روح (إقبال) فيلسوف الشرق وشاعر الإسلام كما يقول عنه الشاعر تتأجج هذه الروح العارمة التى طالعتنا من « لابد أن نسير » ، بل يطالعنا الصراع الذى طالعنا هناك نفسه ، وإن كان طرفا الصراع هنا يتشكلان فى صور جديدة ، بل فى صور جديدة يجسد الشاعر من خلالها الصراع بين السلبية والإيجابية ، بين الخمود الأش والحيوية المتفجرة المضطرمة . ويطالعنا قطبا هذا الحوار منذ المقطع الأول :

قل لمن مد يديه فى الهجير
سائلاً قطرة ماء من غدير
سائلاً رشفة ظل من عبير
مده الله على الروض النضير

لست حيًّا إن تسولت رباه
ومددت الكف تستجدى الحياه
كن هجيرا ترهب النار لظاه
لا نسيمًا يفزع الوهم شذاه

واقتحم بالذات أهال السعير
تنسخ النار ربيعًا... فى ضحاه
جدول يضحك بالماء النمير

وتستمر المقاطع الثلاثة التالية تعميقاً لهذا الصراع الذى حدد الشاعر ملامحه الأساسية فى هذا المقطع الأول ، وتتفاعل الصور والرموز الجزئية ، وتتحاور معمقة قسمات القطبين الأساسيين للصراع : الإيجابية والسلبية وما يرتبط بهما من قيم ومعان متصارعة : القوة والضعف ، العزيمة والخور ، الحرية والعبودية ؛ ولا يلبث ظل السلبية والضعف أن يتقلص عن آفاق رؤية الشاعر ، ليمتد ضوء الطرف الآخر على كل أبعاد الرؤية ، ويعلو صوت القوة ظافراً معتزًا ، وتأتى

بقية أناشيد القصيدة غناء جذلاً لانتصار القوة والصمود والإصرار والحرية والنور ممثلة كلها فى صوت الإسلام المضىء المنتصر :

يوم كان الغرب دنيا غيهب
وأتى المصباح فى كف نبى
يوقظ الأيام من عانى كراها
بضياء شع بين العرب
وكتاب خط للأرض هداها

ولكن عرامة الشاعر واضطرامه المحتدم لا تتخلى عنه حتى فى هذا المهرجان المترقرق بالنور والهزيج ، فتطالعنا هذه الروح العارمة فى المقطع الأخير متمثلة فى هذه الأفعال ذات الدلالات العنيفة « أشعل » هزّ » « تهوى » « حصدنا » « صهرنا » « يعصر » بكل عرامتها واحتدامها فى هذا النشيد الختامى العذب على الرغم مما فيه من مسحة حماسية خطابية يندر أن نجدها فى هذا الديوان وفى شعر (محمود حسن إسماعيل) كله :

طائر الإسلام ، رجّع نغما
كنت فيه للبالى حُلما
أشعل الناى الذى هز السما
وسقى الأعماق شدوًا مسلما

ومن الخلد تلفت ها هنا
تجد الأغلال تهوى حولنا
قد حصدنا الرق من آفاقنا
وصهرنا القيد من أعماقنا
ودعونا الله فى إشراقنا
أن يرد الشرق حرًّا ، مثلما
كان من قبل ... إلى أعتى المنى
بعصر النور ، ويسقى الظلما

وهذا المقطع يقودنا إلى الحديث عن معجم (محمود حسن إسماعيل) الشعرى : فعلى الرغم من ثراء هذا المعجم وتنوع مصادره وتعددها فإن ثمة مجموعة من الألفاظ المحورية التى تعتبر محاور أساسية فى هذا المعجم ، تستقطب كل منها حولها مجموعة من الإيحاءات والمفردات والصور ، ولا تكاد قصيدة من القصائد ، بل لا يكاد مقطع من مقاطع القصيدة يخلو من واحدة أو أكثر من هذه الألفاظ المحورية وما يدور فى فلكها من مفردات وصور وإيحاءات .

ومن أهم محاور المعجم الشعرى (لمحمود حسن إسماعيل) كلمات : النور : النار . الصلاة . الغناء . الشراب ، وما يدور فى فلك كل كلمة من هذه الكلمات من ألفاظ ، سواء بطريق الترادف ، أو الاشتقاق ، أو التضاد ، أو غير ذلك من العلاقات اللغوية .

وهذه المحاور الأساسية شديدة المرونة والطواعية ، وشديدة الثراء ، حيث لا يفتأ الشاعر يشكل منها عشرات الصور والأبنية التعبيرية القادرة على استيعاب كل أبعاد رؤيته الشعرية على تعددها وتشابكها وغرابتها وعمقها ، حيث يستقطب كل محور من هذه المحاور حوله مجموعة من المفردات والصور والتراكيب ذات الإيحاءات الرحيبة .

وكثيرا ما يتعانق فى القصيدة الواحدة ، وأحيانا فى المقطع الواحد من القصيدة – محوران أو أكثر من هذه المحاور ، ومن خلال التفاعل بين هذه المحاور المتعانقة تتوالد الصور والرموزوالإيحاءات التى لا حد لغناها وقدرتها على التأثير . والمقطع الذى اقتبسناه منذ قليل من قصيدة « شعلة الذات » نموذج جيد لهذا التفاعل ؛ فقد زاوج فيه الشاعر بين أهم محاور معجمه الأساسية مستخدماً كل محور بأكثر من صورة من صوره ، ومن خلال تنوع صور كل محور من المحاور من ناحية ، وتعانق هذه المحاور وتفاعلها – تتوالد الصور ، وتنمو الإيحاءات على نحو عبقرى رائع .

فى المقطع يطالعنا محور « الغناء » ممثلاً فى أكثر من معطًى : النغم . الناى الشدو ؛ كما يطالعنا محور « الشراب » ممثلاً فى بعض الأفعال المستمدة من مجاله : سقى . يعصر . يسقى . ومحور « النور » بدوره يتمثل فى مجموعة من المفردات المستمدة من مجاله ، إما بلفظه الصريح ، أو بمرادفاته أو مضاداته : النور . الإشراق . الظلم . الليالى . ومن مجال محور « النار » يستخدم الشاعر

بعض الأفعال : أشعل . صهرنا . ومن آفاق محور « الصلاة » يستمد الشاعر « دعونا الله » .

والشاعر يمزج بين هذه المحاور بصورها ومعطياتها المتعددة مزجاً رائعاً مستغلاً ما يعرف باسم « تراسل الحواس والمدركات » حيث تتعانق كل الحواس ووسائل الإدراك وتتراسل فى تشكيل شعرى حميم ، فنجد الشدو يُسقى ، والنور يعصر ويسقى ، والناى يشتعل ، والرق يحصد ، وهكذا تنمو الصور وتتفاعل ، وتتضاعف إيحاءاتها .

وتراسل الحواس والمدركات وما أشبه ذلك من وسائل تشكيل الصور الشعرية من عناصر شديدة التباعد فى الواقع المدرك هو منهج الشاعر المفضل فى بناء صوره ، فعناصر الصور وجزئياتها فى قصائد (محمود حسن إسماعيل) تبدو على قدر كبير من التباعد ، بل التنافر فى الواقع المادى ، ولكن الشاعر يصهر هذه العناصر المتباعدة المتنافرة فى وهج رؤيته الشعرية ، ويحقق بينها لوناً من التواصل العميق الحميم الذى تصبح به هذه العناصر قسمات متآلفة أصيلة فى عالم (محمود حسن إسماعيل) الشعرى الفريد .

ويزداد عالم الشاعر تفردا وغرابة حين يمزج الشاعر بين هذا المنهج فى بناء الصورة الشعرية ، وبين منهج آخر مناقض له وهو التشخيص ؛ فبينما يقوم الأول على تجريد المحسوسات من دلالتها المادية وتحويلها إلى دلالات تجريدية خالصة يقوم المنهج الآخر على تشخيص المجردات والجمادات وتحويلها إلى كيانات حية

متحركة تحس وتتنفس ، وهكذا يتضاعف تركيب العالم الشعرى ويزداد ثراؤه وقدرته على الإيحاء والنفاذ .

فى قصيدة « بغداد » — وهى واحدة من أطول قصائد الديوان وأجودها — يبدأ الشاعر القصيدة بهذه المناجاة العذبة الرائعة ، التى تتحول فيها « بغداد » إلى كيان حى يفيض بالحياة والفاعلية :

لو ألهمتنى طيف صوت من صدى التاريخ حول بابها
أو وشعتنى بسناً من سجدة النور على قبابها
أو ساكبتنى بيد الوحى رحيق الخلد من عبابها
أو فاغمتنى بعبير المجد فى ترابها
ورشفة من وهلة الإيمان فى أهدبها
ومن جلال الشرق من ضحاه فى رحابها
. . . لجئتها بسيكب من مهجتى من الغناء .. لم تره
وسقتها ملاحماً للشعر من تاريخها ... معطره
تقصّ ألف ليلة جديدة لألفها ... ومعذره

لو دندن الشعور وأقلع الطريق
وفاتنى العبور لسرها العميق
فنغمة العصور فى نايها العريق
تدوخ الدهور وتسكر الرحيق

وتذهل العيدان ، لو بابل تزجى السحر ، من ربابها
وتعصر الإلهام من كل شج ، أو عاشق غنّى بها

أول ما يطالعنا من هذا المطلع هو تشخيص بغداد فى رؤيا الشاعر كائنا حيًّا جليلاً ، يرفع إليه الشاعر مناجاته الواهة : فبغداد هى الملهمة التى يتمنى الشاعر لو ألهمته صوتاً أو طيف صوت من أصداء تاريخها الجليل ، ووشعته بسناً من نورها ، وساكبته رحيق الخلد ، وفاغمته بعبير المجد ... إلخ ، فالتشخيص إذن فى هذا المقطع – وفى القصيدة كلها – هو الوسيلة الأساسية فى بناء الصورة . .

ولكن بغداد ليست مجرد كيان مادى مشخص فى رؤيا الشاعر ، بل لها إلى جانب ذلك ملامحها الروحية والشعورية التجريدية ، ومن ثم فإن الشاعر يلجأ إلى مجموعة من الوسائل التصويرية الأخرى التى تقوم على تجريد المحسوسات وتحويلها إلى دلالات شعورية وفكرية مجردة ، وذلك عن طريق مزجها بعناصر تجريدية ، أو حتى بعناصر أخرى محسوسة من مجال آخر غير المجال الذى استمدت منه العناصر الأولى بحيث يؤدى المزج إلى تخلص العناصر من دلالتها الحسية وتحويلها إلى عناصر شعورية خالصة . .

وهكذا يتآزر هذان المنهجان المتناقضان (التشخيص والتجريد) على تجسيد رؤيا الشاعر بأبعادها المختلفة ... ويمتزج المنهجان ويتحدان كما تمتزج كل المتناقضات وتتحد فى رؤيا الشاعر بعد أن تنصهر فى وهجها الخلاق . . فنسمع للتاريخ أصواتاً وأصداء ، ويمتزج النور والصلاة ؛ ليصبح النور صلاة أو تصبح الصلاة نوراً ، ويقترن الرحيق والخلدُ والعبير بالمجد ؛ ليفقدا معاً دلالتهما الحسية ويتحولا إلى معنيين مجردين ، ويتحول الإيمان إلى شراب أو الشراب إلى إيمان يتمنى الشاعر لو منحته بغداد منه رشفة ... ويمتزج الزمان « الضحى » وبالمكان « الشرق » .. وهكذا تتعانق كل الأبعاد وتمتزج كل المتناقضات فى هذه الوحدة الروحية الشاملة العميقة التى تتآلف فى ظلها كل مظاهر الكون وتتراسل .

ولم ينس الشاعر أن يتكئ هنا على محاور معجمه فى هذا المقطع ، وهو يستخدم هنا أربعة من هذه المحاور هى : النور . الصلاة . الغناء . الشراب ؛ ولعل شفافية الرؤيا الشعرية هنا لم تجعل للنار – وهى إحدى المحاور الأساسية فى معجم الشاعر – مكاناً . وهو يستخدم كلاً من المحاور الأربعة السابقة إما بلفظه أو ترادفاته أو تداعياته المختلفة . فمن مجال محور النور مثلاً يستخدم مفردات : النور ، السنا ، الضحى ؛ ومن مجال الصلاة يستخدم : السجدة ، القباب ، الإيمان ؛ ومن مجال الغناء : الغناء ، دندن ، نغمة ، نايها ، العيدان ، ربابها ، غنى ، صوت ، صدى ، أما الشراب فهو يستخدم من مجاله مفردات : ساكبتنى ، رحيق ، رشفة ، سيكب ، تسكر ، الرحيق ، تعصر .

وقد استطاع الشاعر أن يحقق لوناً بارعاً من الامتزاج الفنى بين هذه العناصر بعضها وبعض ؛ فنراه فى البيت الثانى يمزج بين محور النور ومعطًى من معطيات محور الصلاة « السجدة » ، وفى البيت الخامس يمزج معطًى من معطيات محور الشراب « رشفة » بمعطىً آخر من معطيات محور الصلاة « الإيمان » : (رشفة من وهلة الإيمان) ، ويمزج بين محورى الشراب والغناء فى : « لجتها بسيكب من مهجتى من الغناء لم تره) ، ويمزج بين المحورين كلا مرة أخرى فى : (فنغمة العصور . . تسكر الرحيق) . ومن خلال هذا المزج الرائع بين الأدوات الفنية تتوالد الإيحاءات وتتنوع ، ويتضاعف عطاء القصيدة .

وإذا كان محور « الغناء » من بين المحاور الأربعة التى اتكأ عليها الشاعر فى هذا المقطع قد احتل من مساحة الصورة العامة حيزاً أوسع ، وطغى على بقية المحاور - فإن طبيعة الرؤية الشعرية فى القصيدة هى التى اقتضت هذا ؛ فالقصيدة - كما يشير الشاعر فى تقديمه لها - أغنية لبغداد بمناسبة انعقاد مؤتمر الشعر السادس بها ، والذى كان الشاعر أحد شداته : « من ضفاف دجلة انسكبت هذه الترنيمة التى كانت إنشاد الشاعر فى مهرجان الشعر السادس ببغداد يوم ٢١ من فبراير ١٩٦٥ » . ولكن ليس معنى هذا أن القصيدة مجرد قصيدة مناسبات ؛ لأن الشاعر الأصيل يستطيع دائماً أن يحول أشد المناسبات آنية إلى رؤية إنسانية شاملة شديدة العمق والرحابة ، وشديدة التفرد فى الوقت ذاته ، وهذا ما فعله (محمود حسن إسماعيل) فى هذه القصيدة .

وقد اهتم الشاعر اهتماماً كبيراً فى هذه القصيدة بكل العناصر الغنائية ، وبخاصة عنصر الموسيقى الذى وظفه توظيفاً بارعاً فى الإيحاء بتنوع رؤيته فى القصيدة بين الغناء والمناجاة ، أو بين الغناء والقص ؛ فعلى الرغم من أن القصيدة كلها مكتوبة فى إطار وزن عروضى واحد هو « الرجز » — فإن الشاعر استطاع أن يجعل البناء الموسيقى فى إطار هذا الوزن على قدر كبير من المرونة والطواعية ، حيث يمكننا أن نميز فى يسر بين نظامين من أنظمة التشكيل الموسيقى فى القصيدة ؛ أحدهما أقرب ما يكون إلى قالب النشيد الغنائى يلجأ إليه الشاعر حين يتقمص شخصية المغنى ، حيث تبرز عناصر الإيقاع الموسيقى فتتساوى أطوال الأبيات وتتحد القافية ، بل إن الشاعر لا يكتفى بالقافية فى آخر الشطر (الثانى) من الأبيات فيعمد إلى بناء الأشطار الأولى كلها فى الأناشيد على قافية واحدة — مختلفة عن قافية الشطر (الثانى) :

لو دندن الشعور وأقلع الطريق
وفاتنى العبور لسرها العميق
فنغمة العصور فى نايها العريق
تدوخ الدهور وتسكر الرحيق

وهو نظام يتكرر فى كل مقطع ، حيث يغدو العنصر الموسيقى شديد البروز .

أما حين يتقمص الشاعر شخصية القاص أو المناجى فإن العنصر الموسيقى

يصبح أكثر تنوعاً وخفوتاً فى الوقت نفسه ، ويحقق الشاعر للتشكيل الموسيقى هذا التنوع عن طريق تنويعه لأطوال الأبيات – ما بين خمس تفعيلات وأربع – من ناحية ، وتنويعه لنظام التقفية فى المقطع الواحد من ناحية أخرى ، كل ذلك دون أن يخرج عن إطار وزن الرجز الذى التزمه ، سواء فى الأناشيد الغنائية أو فى بقية الأبيات ، وقد أثرى هذا – الجوانب – الغنائية فى القصيدة دون أن يسقط بها فى هوة الرتابة الايقاعية .

* * *

وبمقدار تنوع أدوات الشاعر الفنية وبراعة وسائله الشعرية تعددت أبعاد رؤيته الشعرية ، وتنوعت دون أن تفقد وحدتها وتلاحم أبعادها ؛ فإذا كان الإطار العام للرؤية الشعرية فى هذا الديوان هو تلك الرغبة العارمة التى سبقت الإشارة إليها فى تغيير كل ما هو متخلف ورديء فى هذا الوجود ، والإصرار على أن تواصل المسيرة الإنسانية طريقها إلى غاياتها النبيلة مكتسحة كل ما يعترض سبيلها من عقبات – فإنه داخل هذا الإطار العام تتعانق مجموعة من الأبعاد النفسية والفكرية والشعورية التى يتألف من امتزاجها وتلاحمها نسيج الرؤية الشعرية فى هذا الديوان . ونستطيع أن نميز فى هذه الرؤية بين ثلاثة أبعاد بارزة – على الرغم من تلاحمها وامتزاجها – وهى : البعد الدينى ، والبعد الاجتماعى ، والبعد القومى ؛ وهذه الأبعاد الثلاثة يمتزج بعضها وبعض امتزاجاً عميقاً بحيث يبسط كل منها ظلالاً من ملامحه على الآخرين . ولكن ربما كان

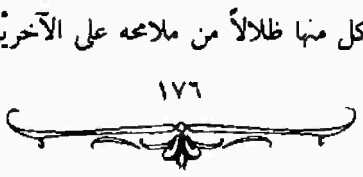

البعد الدينى هو أكثر الأبعاد الثلاثة بروزا فى الديوان ، على الرغم من أنه يكتسى فى كثير من الأحيان بملامح اجتماعية ، وعلى الرغم من أنه يضفى بعض ملامحه على البعد القومى :

فقارئ الديوان يستطيع أن يحس فيه منذ الوهلة الأولى بلون من الوجد الدينى المشبوب الذى يطالعه من معظم قصائد الديوان ، ولا يتمثل هذا الوجد فى مجرد اتخاذ الشاعر من بعض الموضوعات الدينية أطرا لعدد ملموس من قصائد الديوان ، وإنما يتمثل قبل ذلك فى حرصه على أن يجعل رموزه الكبرى للمسيرة الإنسانية الجليلة رموزاً إسلامية ؛ كشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام التى جعلها الشاعر محوراً لقصيدتين هما « حادى التغيير » و« سجدة فى طريق النور » ؛ كما كانت بعد ذلك رمزاً جزئيًّا فى قصيدتين أخريين هما « بغداد » و « شعلة الذات » ، وشخصية على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى قصيدة « سيف الله » ، ثم شخصية فيلسوف الإسلام الكبير محمد إقبال فى قصيدة « شعلة الذات » .

والبعد الدينى فى هذا الديوان يحمل طابعاً اجتماعيًّا واضحاً — باستثناء قصيدة أو قصيدتين يتوشح فيهما الوجد الدينى ببعض ملامح صوفية ، ويمكن اعتبار القصيدتين إرهاصاً بتحول البعد الدينى لدى الشاعر فى دواوينه الأخيرة إلى رؤية صوفية خالصة .

ويتمثل الطابع الاجتماعى للبعد الدينى فى الديوان فى الحرص على إبراز

جوهر الإسلام الوضيء ؛ وتنقيته مما قد يرين عليه من صدأ الزيف والتكلف والرياء ، وإظهار طابعه الإنسانى وعمق حرصه على كرامة الإنسان وسعادته ، ومن ثم فإننا نجد قصيدتين متتاليتين فى الديوان تفضحان مظاهر التدين الزائفة التى تتستر برداء الإسلام وهى أبعد ما تكون عن الإسلام لكفرها بالإنسان ، وعدم إحساسها بهمومه ومتاعبه وآلامه .

وأولى هاتين القصيدتين هى قصيدة « بين الله والإنسان » التى يدين فيها الشاعر أولئك « الذين دميت جباههم من السجود ، وعميت قلوبهم عن الإنسان » فاستغرقوا فى مظاهر صلاة مرائية لم تفتح أعينهم على آلام الفقراء ، ولم تجعلهم يدركون سر الدمعة التى يذرفها الفقير ، ليسقى بها خريفه العطشان ، ويسأل الشاعر مثل هذا المصلى المرائى :

إن كنت لا تبصر هذا السر فى خشوعك القرير
فأى شىء نحوه سبابة كذابة تشير؟

وتستمر القصيدة على هذا المنوال تفضح مظاهر الرياء الدينى ، وتكشف عن حقيقة الجوهر الإنسانى الوضىء للدين .

أما القصيدة الأخرى « قبرة الإحسان » فإن الشاعر يدين فيها مظهراً آخر من مظاهر الرياء الدينى ممثلاً فى أولئك « المرابين بالصدقات فى خريف المساكين » الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى ، ويظنون أنهم قد اشتروا الفقراء بما قدموا

لهم من حقوقهم فى مال الله الذى آتاهم ، ويفتنّ الشاعر فى تصوير عمق إحساس الفقير بالألم والهوان وهو يتلقى الصدقات مشوبة بالمن والأذى ، وتنتهى القصيدة بنغمة إصرار جليلة تتغنى بحق الفقراء فى مال الله الذى أجراه على يد الأغنياء :

وأنا الظمآن إلى حقى
فى درب لا يعرف رقى
ولشىء سموه رزق
سأواصل سيرى لأراه
حرًّا لا تطرف عيناه
وسواه لا أعرف بدلا

دائما الإصرار على السير لتحقيق أهداف الإنسانية النبيلة .

وهكذا يمتزج البعد الدينى والبعد الاجتماعى على هذا النحو البارع الذى يحمل فيه البعد الدينى ملامح اجتماعية واضحة .

أما البعد الاجتماعى فى الديوان فإلى جانب امتزاجه بالبعدين الآخرين فى أكثر من قصيدة فإن الشاعر يجعله إطارًا عامًّا لأربع من قصائد الديوان هى قصائد « لابد » و« قصة الكوخ » و « غن للملاح » و« فقراء » ، ولكن اثنتين من هذه القصائد الأربع وهما « قصة الكوخ » و « غن للملاح » تطغى عليهما نبرة خطابية عالية نادراً ما تطالعنا فى شعر (محمود حسن إسماعيل) وتزداد حدة

هذه النبرة وبروزها فى القصيدة الأخيرة حتى لتبدو غريبة على تجربة هذا الديوان ، بل وعلى عالم (محمود حسن إسماعيل) الشعرى كله ، فهى أقرب ما تكون إلى نشيد حماسى ليس وراء الإيقاع الحماسى فيه والألفاظ والعبارات المجلجلة حظ كبير من الشعر الحقيق ، وتطالعنا هذه النبرة الحماسية منذ مطلع القصيدة :

معنا يا فجر ، وازحف بصباح الثائرينا
وانشر البعث ، وفجر نوره للزاحفينا
وتقدم ، وترنم ، واملأ الدنيا رنينا
نحن من حولك نمضى كل يوم ظافرينا

وتخف حدة هذه النبرة قليلاً فى بقية المقاطع ، ولكن دون أن تتخلى القصيدة عن خطابيتها ومباشرتها . ولعل هذه القصيدة من نتاج المراحل المبكرة فى رحلة الشاعر الشعرية ضمها إلى هذا الديوان لانتمائها إلى بعض أبعاد الرؤية الشعرية فيه .

أما البعد القومى فى الديوان فيطالعنا من قصيدتى « بغداد » و « التائهة » ، وهو فى القصيدتين أيضا يمتزج هو والبعدان الآخران امتزاجاً فنيًّا رائعاً ؛ حيث يحمل الوجه القومى فى قصيدة « بغداد » ملامح إسلامية وضيئة ، وهذه

الملامح ذاتها ذات طابع اجتماعى ، بحيث تتعانق الأبعاد الثلاثة عناقاً حميماً فى مثل هذا المقطع من القصيدة :

من هاهنا .. والنور لم يغفل سناه أبدًا
ورابة الإسلام لم يترك ضحاها أحدًا
وكيف ؟ والسماء خطت فوقها « محمدًا »
محرر الإنسان ، داهى الرق والهوان فى جبينه
بثورة شبت على تكالب الأغـلال فى يمينه
فذوبت قيوده بصيحة القرآن
وأضرمت وقوده فى جبهة الطغيان
وحررت وجوده من قبضة الأوثان
وحرمت سجوده إلا إلى الرحمن

وهكذا تتخلى بغداد فى هذه القصيدة عن دلالتها الجغرافية المكانية المحدودة ، لتصبح معنى قوميًا شاملاً ، بل قيمة إنسانية وضيئة ، وتتصاعد مع نهاية القصيدة أنغام أمنية قومية بالغة العذوبة ، وبالغة العرامة والعنفوان فى الوقت ذاته بأن يتحقق حلم الوحدة الكبير ، والنصر الباهر :

ونلتقى ياعرب الوحدة فوق ربوة الميعاد
وبرقُ النصر يعيد اللحن فى السماء .. يابغداد

أما قصيدة « التائهة » التى كانت وحياً لزيارة قام بها الشاعر إلى أرض المعراج حيث « أحس بعذاب الترب وثورته التى يتضرّم لهيبها على خطى التائهة الملعونة ... إسرائيل » فإن البعد القومى فيها يمتزج هو والبعد الدينى حيث يدين الشاعر موقف إسرائيل من الرسل والأديان فى إطار إدانته لوجودها اللامشروع ، ولقيامها على الشر والعدوان . ولكن القصيدة لا تبلغ من حيث النضج الفنى – مستوى « بغداد » ، حيث يغلب الشاعر فى بعض مقاطعها شعوره الثائر المحتدم ونقمته على إسرائيل وعدوانيتها وشرورها ، فيعبر عن هذه الأحاسيس المضطرمة تعبيراً ساخطاً أقرب إلى الهجاء المباشر منه إلى الفن الشعرى الراقى ، وتتردد فى القصيدة مفردات قاسية الوقع ، غريبة على معجم (محمود حسن إسماعيل) الشعرى الشفيف :

عارية طافت بزنار ... مجدل بالخزى والعارِ
مرجومة النظرة ، فى لحمها ... تابوت أرجاس وأوزار
فلو سرت كانت خناً هارباً ... من ندم فى النفس موار
....
بنت الخطايا السواد دارت بها ... رحيق أفاقين أشرار
من غابر الدهر لها سيرة ... ضاقت بأوطان وأسفار
نهارها يجتر زيف الرؤى ... فهو ظلام فاسقٍ عار
وليلها معصية جنحت ... كالبوم فى أطلال أوكار

وهكذا تستمر نغمة الإدانة عالية ، تقف على مشارف الهجاء السافر ، وبرغم جلال الشعور الذى يعبر عنه الشاعر فى القصيدة وقداسته فلا شك أن طغيان هذه النبرة الهجائية على القصيدة قد أفقدت هذا الشعور شيئاً من نبالته ، فضلاً عن أنها أفقدت البناء الشعرى الفنى بعض تفرده وخصوصيته ، وتنتهى القصيدة بأمنية قومية شبيهة بتلك التى انتهت بها قصيدة « بغداد » وإن كانت بنبرة أعلى وأشد حماسًا :

وفى غد أرقب خيل الضحى تزأر فى غضبة أحرار
تدق باب العار تهوى به وترفع الراية للثار

* * *

وبعد . . فيأيها القارئ العزيز :

على هذا النحو البارع المحكم تتلاحم خيوط النسيج الشعورى للرؤية الشعرية فى هذا الديوان ، وتمتزج أبعاد هذه الرؤية وتتعانق فى وحدة شاملة عميقة ، وهكذا تترابط الأدوات الشعرية وتتحد وتتكامل ممتزجة فى الوقت نفسه بخيوط النسيج الشعورى والنفسى والفكرى فى الديوان ، وتنصهر كل هذه العناصر فى وهج ذلك الوله الروحى الحار العميق الذى يميز رؤية (محمود حسن إسماعيل) الشعرية ؛ لتتحقق للديوان وحدة فنية وشعورية شاملة تبسط ظلالها على كل قصائد الديوان ، وتحتضن كل مكوناته .

وعلى هذا النحو – أيها القارئ العزيز – يصوغ (محمود حسن إسماعيل) فى تبتل وإخلاص صوفيّين ملامح عالمه الشعرى الفريد الذى أرجو أن تكون هذه الكلمات قد نجحت فى أن تقف بك على أبوابه ؛ لتتركك بعد ذلك ؛ لترتاد بنفسك أرجاءه ، وتكتشف آفاقه السحرية الغريبة الثرية ، وتظفر بهذه النشوة الروحية العميقة التى يثيرها فى النفس اكتشاف مثل هذا العالم الرحيب الفريد !

الدكتور على عشرى زايد

دار العلوم

فهرس

قصيدة	صفحة
● لابد	٥
● البيعة	١٩
● حادى التغيير	٣١
● بغداد	٤٣
● التائهة	٥٩
● سيف الله	٧٣
● سجدة فى طريق النور	٨١
● قصة الكوخ	٨٧
● غن للملاح	٩١
● فقراء	٩٧
● بين الله والإنسان	١٠٧
● قبرة الإحسان	١١٣
● قديس السلام	١٢١
● شعلة الذات	١٣٥
● من نار السكينة	١٤٥

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٤٧٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٧٣٣٤-٩٥-٨

١/٧٩/٣٩٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)